خمسون حكاية وحكاية

مجموعة حكايات واقعية جديدة ومثيرة

محمد إسماعيل الجاويش

الدار الذهبية



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

الجاويش، محمد إسماعيل.

خمسون حكاية وحكاية : مجموعة حكايات واقعية جديدة ومثيرة/

محمد إسماعيل الجاويش . ط١ — القاهرة : الدار الذهبية ، ٢٠٠٦م

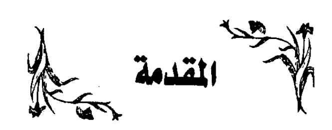
١٢٠ ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم .

١- حصر — قصص وحكايات.

أ- العنوان : ٨ شارع الجمهورية . عابدين.

رقم الإيداع: ٩٦١٦/ ٢٠٠٦

٨٠٨,٨٠٣٢



المقدمة

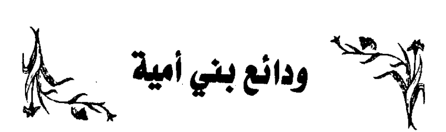
ما أجدرنا أن نعود إلى تراثنا العربي كي نتذوق ما خلف من أدب راق، عبر الأجداد من خلاله عن حياتهم، فرسموا صورة لواقعهم، وما ساد حياتهم من قيم ومبادئ، ومن فكر ومشاعر، إذ إن أدب أية أمة هو صورة صادقة لفكرها، ونبض دافق لأحاسيسها ومشاعرها، فهو المرآة الصادقة للأمة في سائر أحوالها.

وإن احترام أي شعب لذاته يدفعه إلى أن يعود إلى ماضيه إيمانا منه أن الحاضر ابن الماضي ومنه يشرق الغد بآماله وتطلعاته، فمن ليس له ماض لن يكون له غد.

وأدبنا العربي تضمن حكايات جميلة، نطالعها فنجد الحكمة والفطنة، كما نجد الطرافة والمتعة نقدم لك منها في هذا الكتاب طاقة جميلة، نتنسم فيها عبير الماضي وذكريات الأجداد، إحياء لتراث أمتنا، واعتزازا بتراثنا وثقافتنا التي تحدد أساس وجودنا حتى لا نضيع وسط دعاوى العولمة التي تريد للشعوب أن تنسى ماضيها كي تضيع هويتها الذاتية فيتحول العالم إلى أفراد تائهين.

والله من وراء القصد،،،

المؤلف



ودائع بني أمية

رفع إلى الخليفة العباسي أن رجلا عنده ودائع وأموال لأعدائه من بني أمية، فأمر بإحضاره، فلما ادخل إليه قال المنصور:

قد رفع إلينا خبر الودائع والأموال التي عندك لبني أمية، فأخرجها إلينا، فقال الرجل:

يا أمير المؤمنين... أوارث أنت لبني أمية؟ قال: لا. قال الرجل:

أفأوصوا لك بأموالهم، قال المنصور: لا. قال:

فما سؤالك عما في يدي من ذلك؟

فأطرق المنصور مدة، ثم رفع رأسه، وقال: إن بني أمية قد ظلموا المسلمين فيها، وأنا وكيل المسلمين في حقهم، وأريد أن آخذ ما ظلموا فيه المسلمين فأجعله في بيت مالهم. فقال الرجل:

تحتاج يا أمير المؤمنين إلى إقامة البينة العادلة على أن ما في يدي من أموال لبني أمية مما خانوا وظلموا فيه دون غيره، فقد كان لبني أمية أموال غير أموال المسلمين.

فقال المنصور: صدقت ما يجب عليك شيء، ثم قال له: هل لك حاجة. قال:

تجمع بيني وبين من سعى بي إليك، فوالله ما لبني أمية في يدي مال، ولا وديعة، ولكني لما مثلت بين يديك وسألتني عما سألتني عنه علمت أنه ما ينجيني منك إلا هذا القول.

فلما جمع المنصور بينه وبين الواشي عرفه، وقال:

هذا غلامي سرق مني ثلاثة آلاف دينار من مالي، وهرب مني،

وخاف من طلبي فسعى بي عند أمير المؤمنين.

فشد المنصور على الغلام وخوفه حتى أقر بكل ما ذكره الرجل، فقال المنصور للرجل:

نسألك أن تصفح عنه. قال:

قد صفحت عنه، وأعتقته، ووهبت له الثلاثة آلاف التي أخذها، وثلاثة آلاف أخرى، ثم انصرف.

فكان المنصور دائم التعجب من الرجل ويقول:

ما رأيت مثل هذا الشيخ قط.





صندوق أم المؤمنين

يروى أن أم المؤمنين بنت عبد العزيز بن مروان التي كانت زوجة للخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك قد هوت وضاح الشاعر اليمني الذي تميز بالصباحة وعرف بالملاحة، فكان يتردد عليها في مسكنها، يدخل عندها فيقيم معها، فإذا خافت أخفته في صندوق عندها وأقفلت عليه.

وذات يوم دخل الخادم عندها فجأة فشاهد عندها وضاحا، فبادرت وأدخلته الصندوق فطلب الخادم منها حجرا نفيسًا كان يعرفه عندها فرفضت. فمضى الخادم وأخبر زوجها الوليد فقال الوليد للخادم:

كذبت واتجه الوليد إلى أم المؤمنين فرآها تمشط شعرها، فجلس فوق الصندوق الذي كان الخادم قد وصفه له، ثم قال:

يا أم البنين هبي لي صندوقا من هذه الصناديق فقالت:

كلها بحكمك يا أمير المؤمنين. فقال:

إنما أريد واحدًا منها. فقالت:

خذ أيها شئت. فقال:

هذا الصندوق الذي تحتي. فقالت:

غيره أحب إليك منه. فإن لي فيه أشياء أحتاج إليها. فقال:

ما أريد سواه.

قالت:

خذه فدعا بالخدم وأمره بحمله حتى انتهى إلى مكان، فوضعه فيه، ثم دعا عبيدًا له عجما[1]، وأمرهم بحفر بئر في المكان، فحفرت البئر ثم دعا

(١) لا يتكلمون اللغة العربية.

بالصندوق فوضعه على حافة البئر ودنا منه، وقال:

يا صاحب الصندوق.... إنه قد بلغنا شيء إن كان حقا فقد دفناك ودفنا ذكرك إلى آخر الدهر، وإن كان باطلا فإنما دفنا الخشب.

ثم قذف به في البئر، وهيل عليه التراب، وسويت الأرض فما رئي الوضاح بعد ذلك اليوم، ولا أبصرت أم المؤمنين في وجه الوليد غضبا حتى فرق الموت بينهما [١].



(١) عن كتاب (وفيات الأعيان) لابن خلكان.

خالد بن صفوان، وأم سلمة

دخل خالد بن صفوان على الخليفة العباسي السفاح، وكان مقربا إليه لما عرف عنه من فصاحة وحضور بديهة فوجده خاليا، فقال:

يا أمير المؤمنين... أنا أترقب منذ تقلدت الخلافة أن أجدك خاليا فألقي إليك ما أريده. فقال:

اذكر حاجتك قال:

يا أمير المؤمنين... إني فكرت في أمرك فلم أجد من هو في مثل قدرك أقل استمتاعا بالنساء، وقد ملكت على نفسك امرأة واحدة، واقتصرت عليها، فإن مرضت مرضت، وإن غابت غبت، وإن غضبت حرمت، وإنما التلذذ باستطراف الجواري، ومعرفة اختلاف أحوالهن، والاستمتاع بهن، فلو رأيت الطويلة البيضاء، والسمراء اللفاء، والصفراء العجزاء، والغنجة الكحلاء، والمولدات من المدنيات، والملاح من القندهاريات[1] ذوات الألسن العذبة والقدود المهفهفة والثدي المحققة.

وجعل خالد بعذوبة لفظه وحلو بيانه يزيد في قوله، فلما فرغ من قوله قال السفاح:

والله يا خالد ما سلك سمعي كلام قط أحسن من هذا، لقد حرك في ساكنا.

وبقي السفاح مفكرا عامة نهاره، ثم دخلت عليه زوجته أم سلمة، فلما رأته دائم الفكر كثير السهو قليل النشاط قالت: إني أنكرك يا أمير

---

(١) منسوبات إلى إقليم قندهار في أفغانستان.

المؤمنين، فهل حدث ما تكره؟

ولم تزل به حتى حدثها بخبر خالد بن صفوان فسبَّته وقالت: فما قلت له؟ قال:

سبحان الله... رجل نصحني تسبينه.

وخرجت أم سلمة من عند زوجها متميزة غيظا وأرسلت إلى خالد بجماعة من غلمانها العجم ومعهم العصي، وأمرتهم ألا يتركوا فيه عضوا صحيحا.

أما خالد فقد انصرف من عند السفاح وقد امتلأ سرورا لإعجاب الخليفة بقوله وتأييده لرأيه، وقعد على باب داره ينتظر جائزته، فلم يشعر إلا بالغلمان، فتحقق أنهم قد جاءوه بالجائزة، وحين وقفوا قريبا منه وسألوه عن ابن صفوان قال لهم:

ها أنذا، فأهوى بعضهم بهراوته إليه فوثب مسرعا داخلا داره، وأغلق عليه بابه وعرف هفوته وأدرك زلته، ومكث أياما مستترًا وإذا بجماعة من خدم السفاح قد أقبلوا عليه، وقالوا:

أجب أمير المؤمنين.

فأيقن خالد سوء المصير وتوقع مزيدًا من الأذى والعقاب، فركب معهم وقد امتلأ هما وقلقا، فلما دخل عليه وسلم رد عليه، فسكنت نفسه وخف قلقه، وأومأ إليه الخليفة بالجلوس وجلس، ونظر فإذا خلف ظهر السفاح باب عليه ستور قد أرخيت وأحس بحركة خلفه، وقال له الخليفة:

يا خالد... لم أرك منذ أيام.. فادعى أنه كان مريضا فقال له:

ويحك.. إنك وصفت لي آخر يوم كنت فيه عندي فيه من أمر النساء والجواري ما لم يخرق سمعي قط مثله، فأعده علي. قال:

نعم... وأعلمتك يا أمير المؤمنين أن العرب قد اشتقت اسم الضرتين

من الضر، وأن أحدهم لم يكن عنده من النساء أكثر من واحدة إلا كان في جهد وكد.

قال السفاح:

ويحك لم يكن هذا في كلامك، قال خالد:

بلى، وأخبرتك أن الثلاث من النساء كأثافي [١] القدر تغلي عليهن.

قال السفاح:

برئت من قرابتي من رسول الله ﷺ إن كنت سمعت هذا منك في حديث. قال:

بلى وأخبرتك أن الأربعة من النساء شر مجموع لمن كن عنده، يهرمنه[٢] وينغصن عليه عيشه، ويشيبنه قبل حينه.

قال السفاح: والله ما سمعت هذا قط منك، ولا من غيرك.

قال خالد: بلى يا أمير المؤمنين لقد قلت.

قال السفاح:

ويلك تكذبني.

قال: يا أمير المؤمنين أفتريد قتلي؟

فسمع ضحك شديد وراء الستر، فقال خالد: وأعلمتك أن عندك ريحانة قريش، وأنه لا يجب أن تطمح نفسك إلى غيرها من النساء.

فسمع من وراء الستر صوت يقول:

صدقت والله يا عماه، ولكن أمير المؤمنين غير وبدل ونطق عن لسانك بغير ما ذكرت وخرج خالد إلى منزله، فلم يصل إليه حتى وجهت إليه أم سلمة هدايا قيمة وخمسة آلاف درهم.

---

(١) الأثافي: ثلاثة من الحجارة توضع عليها القدر.

(٢) يهرمنه: يجلبن إليه الهرم قبل موعده.



فاعل الخير.. في أمان الله

كان العام الهجري السادس والثمانين بعد المائة من الأيام السعيدة في حياة الخليفة العباسي هارون الرشيد، حيث استقر ملكه وتثبتت أركانه واطمأن على غده بعد أن بايع لأولاده الثلاثة الأمين والمأمون والمعتصم بولاية عهده، وبعد أن فرغ من أداء فريضة الحج، وأثناء وقوفه بمدينة الكوفة علم بما أقلقه وأزعجه، إذ إنه قد خبر أن أحد بقايا البيت الأموي في دمشق قد عظم ماله وكثر جاهه، والتفَّت الناس من حوله وله في العديد من البلدان أتباع وأنصار ومماليك وأموال، والتفت القلوب حوله لسماحته وجوده وبذله وأن هذا الرجل لا يؤمن شره، فاعتقد الرشيد أنه خطر على سلطانه، لذلك بادر فاستدعى أحد كبار رجاله الذين يثق بهم في تصريف الدولة والحفاظ عليها وقال له:

إني دعوتك لأمر يهمني، وقد منعني من النوم، فانظر كيف تعمل ... ثم قص عليه خبر الرجل الأموي، وقال: اخرج الساعة، فقد أعددت ما يلزمك لسفرك ويضم إليك مائة غلام، وأسلك البرية، وهذا كتابي إلى أمير دمشق، وهذه قيود، فادخل وابدأ بالرجل، فإن سمع وأطاع قيده، وجئني به، وإن عصى فتوكل به أنت ومن معك، وانفذ هذا الكتاب إلى والي الشام ليركب في جيشه، ويقبضوا عليه ، وجئني به، وقد أجلتك لذهابك ستا[1]، ولمجيئك ستا، وهذا محمل، تحمل الرجل في شقه قعيدًا، وتقعد أنت في الشق الآخر، ولا تترك حفظه إلى غيرك حتى تأتيني به في اليوم الثالث

(١) يقصد ستة أيام.

من خروجك.

وإذا دخلت داره فتفقدها وجميع ما فيها، وأهله وولده وحشمه وغلمانه، وقدر النعمة والحال والمحل واحفظ ما يقوله الرجل حرفا بحرف من ألفاظه، من حين وقوع طرفك عليه، إلى أن تأتيني به.

وخرج منارة راكبا الإبل، يطوي المنازل، يسير الليل والنهار، ولا ينزل إلا للجمع بين الصلاتين وقضاء الحاجة، والاستراحة قليلا من عناء السير، إلى أن وصل دمشق في أول الليلة السابعة،وكانت أبواب المدينة مغلقة فكره الدخول ليلا، ونام بظاهر المدينة إلى أن فتح الباب فدخل على هيئته، حتى أتى دار الرجل، فوجد عليها حاشية عظيمة، فلم يستأذن وإنما دخل بغير إذن فلما رأى القوم ذلك سألوا بعض غلمانه، فقالوا: هذا منارة رسول أمير المؤمنين إلى صاحبكم.

فلما صار في صحن الدار نزل، ودخل مجلسا رأى فيه قوما جلوسا، فظن أن الرجل فيهم، فقاموا ورحبوا به، فسألهم: أفيكم فلان؟ قالوا: لا، نحن أولاده، وهو في الحمام. فقال:

استعجلوه، فمضى بعضهم يستعجله ومنارة يتفقد الدار والأحوال والحاشية، فوجد أن الدار قد ماجت بأهلها موجا عظيما.

ولم يزل منارة كذلك حتى خرج الرجل بعد أن أطال، فاستراب منارة في الأمر وزاد قلقه وخوفه من أن يتوارى، ولكنه رأى شيخا بزي الحمام يمشي في صحن المنزل، ومن حوله جماعة من الكهول والأحداث والصبيان، فجاء حتى جلس، فسلم على منارة وسأله عن أمير المؤمنين، فأخبره عما سأل، وما قضى كلامه حتى جاءوا بأطباق الفاكهة فقال الرجل تقدم يا منارة فكل معنا. فقال منارة:

ما بي إلى ذلك من حاجة، فلم يعاوده الرجل[١].

وأقبل يأكل هو ومن عنده، ثم غسل يديه، ودعا بالطعام، فجاءوا بمائدة عظيمة، لم ير منارة مائدة مثلها إلا للخليفة، وقال له الرجل:

تقدم يا منارة فساعدنا على الأكل.

فامتنع منارة، فما عاوده الرجل، وأكل هو ومن عنده، وكانوا تسعة من أولاده، فتأمل منارة أكله، فوجده يأكل كأكل الملوك، ووجده رابط الجأش، وكان الاضطراب الذي حدث في داره قد سكن.

وظل منارة وحده ليس بين يديه إلا نحو خمسة غلمان واقفين تحت رأسه بعد أن أخذ رجال الرجل الأموي جماله وماله وغلمانه، فقال منارة في نفسه:

هذا جبار عنيد وإذا امتنع عن الشخوص إلى الخليفة لم أقدر عليه بمن معي، وفزع منارة لهذا الخاطر ورابه من الرجل استخفافه به في الأكل، وأنه لم يسأله عما جاء به، بل راح يأكل وهو مطمئن هادئ البال ولما فرغ الرجل من أكله، وغسل يديه، دعا ببخور فتبخر، وقام إلى الصلاة فصلى الظهر، وأكثر من الدعاء والابتهال، فرأى منارة صلاته حسنة، فلما فرغ من صلاته اتجه إليه، وقال:

ما أقدمك يا منارة؟ فقال:

أمر لك من أمير المؤمنين، وأخرج الكتاب، فدفعه إليه، وقرأه، فلما أتم القراءة دعا أولاده وحاشيته فاجتمع منهم خلق كثير، فظن منارة أنه يريد أن يوقع به، فلما تكاملوا حلف عليهم أيمانا مغلظة أن ينصرفوا، ويدخلوا منازلهم، وألا يجتمع منهم اثنان في مكان واحد، ولا يظهروا إلا

(١) لم يطلب منه أن يأكل مرة ثانية.

أن يظهر لهم أمر يحتاج إلى ذلك، وقال:

هذا كتاب أمير المؤمنين، يأمرني بالتوجه إليه ولست أقيم بعد نظري فيه لحظة واحدة، فاستوصوا بمن ورائي من الحرم خيرا، وما بي من حاجة أن يصحبني غلام، هات قيودك يا منارة.

فأخرج منارة قيوده، ودعا حدادًا فمد الرجل يديه، وتم تقييده، وحمل إلى المحمل وكان هو في شقة وفي الشق الثاني استقر منارة وسار الركب متجها نحو الخليفة.

ولما كان الركب في ظاهر دمشق ابتدأ الرجل يحدث منارة في انبساط، حتى انتهوا إلى بستان حسن فقال الرجل:

ترى هذا فقال منارة: نعم.

قال الرجل:

إنه لي، إن فيه من غرائب الأشجار كيت وكيت ثم انتهى إلى آخر فقال مثل ذلك، ثم انتهى إلى مزارع حسان، وقال: هذه لي، وهنا اشتد غيظ منارة، وقال له:

إني شديد التعجب منك.

قال: ولم تعجب؟

قال منارة:

ألست تعلم أن أمير المؤمنين قد أهمه أمرك حتى أرسل إليك من انتزعك من بين أهلك ومالك وولدك، وأخرجك عن جميع مالك فريدا وحيدا مقيدا ما تدري إلام يصير أمرك، ولا كيف يكون، وأنت فارغ القلب من هذا، تصف ضياعك وبساتينك، وقد رأيتك، وقد جئت إليك، وأنت لا تعلم فيم جئت، ساكن القلب، قليل الفكر لقد كنت أظنك شيخا فاضلا.

فقال الرجل مجيبا:

إنا لله وإنا إليه راجعون، أخطأت فراستي فيك، ظننتك رجلا كامل العقل، وأنك ما حللت من الخلفاء هذا المحل إلا بعد أن عرفوك بذلك، فأنا – والله – رأيت عقلك وكلامك يشبه كلام العوام وعقلهم، والله المستعان.

أما قولك في أمير المؤمنين وإزعاجه وإخراجه إياي إلى بابه، على صورتي هذه – فأنا على ثقة من الله عز وجل، الذي بيده ناصيتي، ولا يملك أمير المؤمنين لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرا إلا بإذن الله ومشيئته، لا ذنب لي عند أمير المؤمنين فأخافه، فإذا عرف أمري، وعلم سلامتي وصلاحي، وأن الحسدة والأعداء رموني عنده بما ليس فيّ، وتقولوا علي الأباطيل الكاذبة، فإنه لن يستحل دمي، ويردني مكرما، أو يقيمني ببابه معظما، وإن كان قد سبق في علم الله عز وجل أنه تبدر منه بادرة سوء، وقد حضر أجلي، وكان سفك دمي على يده، فلو اجتمعت الإنس والجن والملائكة على صرف ذلك عني ما استطاعوا فلم أتعجل الغم؟ وإني حسن الظن بالله عز وجل الذي خلق ورزق، وأحيا وأمات وأحسن وأجمل، وإن الصبر والرضا، والتفويض والتسليم إلى من يملك الدنيا والآخرة أولى، وقد كنت أحسب أنك تعرف هذا، أما وقد عرفت مبلغ فهمك فإني لا أكلمك بكلمة واحدة حتى يفرق أمير المؤمنين بيننا.

ثم أعرض الرجل عن منارة، فما سمع منه لفظة غير التسبيح وقراءة القرآن الكريم، أو حاجة يريد أن يقضيها، حتى شارفوا الكوفة، في اليوم الثالث عشر بعد الظهر.

وكان الخليفة قد أرسل مجموعة من النوق النجيبة تستطلع أمر منارة وركبه على بعد عدة فراسخ من الكوفة، فلما رأوه رجعوا بالخبر إليه، وفي

نهاية النهار حط رحل منارة ومن معه ودخل بين يدي الرشيد فقال له: هات ما عندك يا منارة، وإياك أن تغفل منه لفظة واحدة.

وأخذ منارة يروي ما حدث، فساق الحديث من أوله إلى آخره، إلى أن انتهى عند ذكر الفاكهة، والطعام، والغسل والبخور والصلاة، وما حدثته به نفسه من احتمال أن يمتنع الرجل الأموي عن تسليم نفسه، وهنا بأن الغضب على وجه الرشيد واستمر منارة في سرد الحديث إلى أن فرغ الأموي من الصلاة، ثم التفاته إلى منارة وسؤاله عن سبب قدومه.

وما كان منه حين دفع إليه كتاب أمير المؤمنين، حيث بادر بإحضار ولده وأهله، وحلف عليهم ألا يتبعه أحد ثم مده رجليه حتى قيدوه، فأخذ وجه الخليفة حتى انتهى إلى ما خاطبه به عند توبيخه إياه لما ركبا المحمل.

قال الرشيد:

صدق والله، ما هذا إلا رجل محسود على النعمة مكذوب عليه، ولعمري لقد أزعجناه وآذيناه، وروعنا أهله، فبادر بنزع قيوده عنه وأتني به.

فخرج منارة، ونزع قيوده وأدخله على الرشيد فلما رآه الرشيد جال ماء الحياة في وجهه وشعر بالحرج، وأحسن استقباله وسأله عن حاله، ثم قال:

لقد بلغنا عنك فضل هيئة، وأمور أحببنا معها أن نراك، ونسمع كلامك، ونحسن إليك فاذكر حاجتك، فأجاب الأموي جوابا جميلا وشكر، ودعا ثم قال:

ما لي إلا حاجة واحدة، قال الخليفة:

مقضية ما هي؟ قال:

يا أمير المؤمنين تردني إلى بلدي وأهلي وولدي.



قال الخليفة:

نحن نفعل ذلك إن شاء الله تعالى.

ولكن سل ما تحتاج إليه في جاهك ومعاشك فإن مثلك لا يخلو أن يحتاج إلى شيء من هذا فقال الرجل:

عمال أمير المؤمنين منصفون، وقد استغنيت بعدله عن مسألته، فأموري منتظمة وأحوالي مستقيمة، وكذلك أمور أهل بلدي بالعدل الشامل في ظل أمير المؤمنين.

فقال الرشيد:

انصرف محفوظا إلى بلدك، واكتب إلينا بأمر إن عرض لك.

وخرج الرجل محاطا بالإكبار والتقدير من أمير المؤمنين، وعاد إلى أهله منعما بسلامة الله وأمنه فارتفعت أكف الشكر والعرفان لله الذي نجاه بفضله ومنته.





الجزاء الطيب

جلس الخليفة العباسي المأمون في الإيوان يدبر ملكه، وكان أن أمر بإحضار صاحب الشرطة والمسئول عن الأمن في بغداد وكان اسمه العباس حين أدخل عليه رجل مكبل بالحديد وقال له:

يا عباس: خذ هذا الرجل واحتفظ به إلى الغد واستوثق منه واحذر كل الحذر.

فدعا العباس جماعة حملوه ؛ لأن الرجل لم يكن يقدر على الحركة، وقد قال في نفسه: مع هذه الوصية التي أوصاني بها أمير المؤمنين والتحذير الشديد الذي حذره ما ينبغي أن يوضع الرجل إلا في بيتي لخطورته.

ثم راح يسأل الرجل عن شأنه وقصته، ويسأله عن بلده، وموطنه فقال الرجل:

إني من دمشق، فقال العباس:

جزى الله دمشق وأهلها خيرا، فمن أنت من أهلها.

قال الرجل المكبل بالحديد:

لا تزد أن تسألني عن غيري.

فقال العباس:

أتعرف فلانا وسأله عن أحد رجال دمشق. فقال: ومن أين عرفت أنت هذا الرجل؟ فقال العباس:

كانت لي معه قصة فقال الرجل:

خبرني عن قصتك معه، وأنا أعرفك خبره. قال العباس:

كنت أعمل مع بعض الولاة في دمشق فثار الناس ضدنا، وفر الوالي

من قصره هو وجميع أصحابه وهربت فيمن هرب، وبينما أنا أسير في بعض الطريق أقبل جماعة يعدون خلفي، فمازلت أسابقهم حتى مررت على هذا الرجل الذي سألتك عنه، وهو جالس على باب بيته فقلت له: أغثني أغاثك الله فقال:

لا بأس عليك، ادخل الدار.

فدخلت فقالت امرأته:

ادخل الحجلة[1] فدخلتها، وأتى الرجال يعدون خلفي ويقولون لصاحب البيت: هو والله عندك فقال: دونكم الدار. ففتش الرجال الدار حتى لم يبق إلا الغرفة التي كنت فيها، فقالوا:

إنه ههنا، فصاحت المرأة، وانتهرتهم، فانصرفوا وخرج الرجل، وجلس على باب داره ليوهم المارة أنه ليس عنده أحد، بينما أنا بالداخل خائف فقالت المرأة:

اجلس لا بأس عليك؛ فجلست، فلم يلبث أن دخل الرجل، وقال:

لا تخف فقد صرت إلى الأمن والدعة إن شاء الله تعالى فقلت له:

جزاك الله عني خيرا.

ثم ما زال يعاشرني أحسن المعاشرة وأجملها، ولا يكف عن إيناسي وإدخال السرور علي أربعة أشهر كاملة قضيتها في بيته أنتظر سكون الفتنة وهدوء الحال، فلما هدأ قلت له:

أتأذن لي في الخروج كي أتعرف خبر غلماني ومنزلي؟

فلعلي أقف لهم على أثر أو خبر، فأخذ الرجل علي المواثيق أن أعود إليه بعد قضاء مهمتي فخرجت، وطلبت غلماني فلم أر لهم أثرا، فرجعت إليه وأخبرته الخبر، فقال:

---

(١) الحجلة: ساتر كالقبة يزين بالثياب والستور لتتزين فيه النساء.

ما تنوي أن تفعل؟ فقلت:

لقد عزمت أن أذهب إلى بغداد، فإن قافلة تخرج بعد ثلاثة أيام، ولقد قدمت لي الخير كله خلال هذه المدة لكني أسألك أن تعطيني ما أنفقه في الطريق، فقال الرجل:

يصنع الله ما يشاء، ثم أصدر أمره إلى غلمانه أن يقوموا بإعداد عدة السفر فقلت في نفسي: أعتقد أنه سيخرج إلى ضيعة له أو ناحية من النواحي.

ولما جاء يوم تحرك القافلة جاءني وقت السحر، وقال:

يا أبا فلان... قم فإن القافلة تخرج الساعة، فقلت في نفسي: ما أعطاني الرجل شيئا مما سألته، ثم قمت فإذا هو وامرأته يحملان إلي ملابس السفر وأدواته، وأعطاني خمسة آلاف درهم وقدم إلي فرسا جهزه بسرجه ولجامه، وقال لي:

اركب، وهذا الغلام الأسود يخدمك ويسوس فرسك، وركب معي فشيعني، واتجهت مع القافلة إلى بغداد وحمدت الله أن نجوت وشكرت للرجل الفاضل صنيعه معي وعزمت على أن أكافئه المكافأة التي تليق به، حيث عرض نفسه للأخطار من أجل أن ينقذني وهو لا يعرفني، ولكن منعني من أن أكافئه ما شغلت به في بغداد والتنقل من مكان إلى مكان، ولكن أدعو الله أن يمد في أجلي حتى ألقى هذا الرجل العظيم فأكافئه وهنا قال الرجل:

قد أتاك الله عز وجل بما تريد، فجاءك من تشتاق إلى رؤيته وتتمنى مكافأته. قلت: وكيف ذلك؟ قال:

أنا والله ذاك الرجل الذي تحدثت عنه وتشتاق إليه، ثم تعرف إلي، وأقبل يذكرني بأشياءَ كان يصنعها معي حتى عرفته، فما تمالكت أن قمت

إليه، فقبلت رأسه، وقلت له:

ما الذي أصارك إلى ما أرى؟ فقال:

هاجت فتنة بدمشق مثل الفتنة التي كانت في أيامك، فنسبت إلي واتهمت بتدبيرها، وبعث أمير المؤمنين، بجيش هزم الثائرين، وحملني إليه وأمري عنده جد خطير، وهو قاتلي لا محالة، وقد قبضوا علي وأحضروني دون أن أوصي أهلي وتبعني من عبيدي من يعود بخبري إلى أهلي، وهو يقيم هنا في بغداد عند فلان، فإن رأيت أن تتفضل علي، وتبعث إليه فتحضره، فأتقدم إليه بما أريد فيكون ذلك مكافأتي، فقال العباس:

يصنع الله خيرا، ثم أمر بحداد، فأتى فحل قيود الرجل، ودعا بحلاق فهذب شعره، ثم أدخله الحمام، وألبسه الطيب الحسن من ثيابه، ثم أمر العباس بأحسن جياده وعدد من الصناديق امتلأت بالكسوة والطعام ثم أمر بعشرة آلاف درهم أعطاها للرجل ومعها كيس فيه خمسة آلاف دينار، وقال لنائبه في قيادة الشرطة: خذ هذا الرجل واعبر به جسر الأنبار ثم وجه الكلام إلى الرجل قائلا:

انج بنفسك. فقال الرجل:

إن أمري خطير، وإن أنت احتججت بأني هربت بعث أمير المؤمنين في طلبي كل من على بابه، فأرد وأقتل. فقال العباس:

انج بنفسك، ودعني أدبر أمري، فقال الرجل:

والله لا أبرح بغداد حتى أعلم ما يكون من خبرك. فإن احتجت إلى حضوري حضرت. فقال العباس لنائب الشرطة إن كان الأمر على هذا فليكن في موضع كذا، فإن سلمت في الغد فحمدا لله على السلامة، وإن قتلت كنت قد وقيته بنفسي كما وقاني بنفسه، وأنشدك الله أن تخلِّصه حتى يخرج من بغداد.

وأخذ نائب الشرطة الرجل، وجعله في مكان يثق به وتفرغ العباس لنفسه، فاغتسل وتحنط وتكفن وفي السحر جاءت رسل المأمون إليه، وقالوا: أمير المؤمنين يأمرك بإحضار الرجل.

فتوجه العباس إلى قصر الخلافة، فإذا المأمون جالس فلما رأى العباس قال:

الرجل، فسكت العباس فقال المأمون:

ويحك أين الرجل. فقال العباس:

يا أمير المؤمنين. اسمع مني فقال المأمون:

عهد الله وميثاقه لئن ذكرت أنه هرب لأضربن عنقك.

فقال العباس:

لا والله ما هرب، فاسمع مني حديثه وحديثي، ثم أنت أعلم بما تفعله في أمرنا.

قال الخليفة:

قل: فقص العباس قصته معه، وقال:

كنت أتمنى رؤيته ومكافأته، فلم أره إلا أمس.

ثم كان من أمري ما معه أن عبرت به جسر الأنبار، وقلت: أنا من سيدي أمير المؤمنين بين أمرين، إما صفح عني، وإما قتلني فأكون قد كافأته ووقيته بنفسي كما وقاني بنفسه.

فلما سمع المأمون الحديث قال:

جزاك الله خيرا عن نفسك، وعن هذا الفتى الحر، إنه فعل بك ما فعل من غير معرفة وتكافئه بعد المعرفة بهذا !! لمَ لمْ تعرفني خبره فكنت أكافئه عنك. فقال العباس:

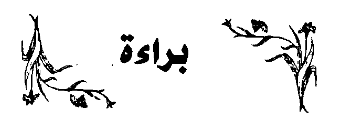
إنه يا أمير المؤمنين ههنا، قد حلف ألا يبرح بغداد حتى يعرف

سلامتي، فإن احتيج إلى حضوره حضر. قال المأمون:

وهذه والله منه أعظم من الأولى، اذهب إليه الآن، وطيب نفسه، وسكن روعه، ثم أحضره حتى أتولى مكافئته عنك.

فذهب إليه العباس وطمأنه وطيب خاطره وأحضره إلى المأمون فأحسن استقباله وأجلسه إلى جانبه وآنسه وحدثه حتى حضر الغداء، فأكل معه، وخلع عليه، وعرض عليه ولاية دمشق فاستعفاه، فدفع إليه المأمون بأموال كثيرة وكتب إلى عامل دمشق يوصيه به، وأعفاه من خراج أرضه ثم صرفه معززا إلى بلده.





براءة

حكم الملك حسان الحميري إمارة حمير[١] حكما استبداديًّا فكان قاسيا على شعبه وعرف عنه التسلط والظلم واشتهر بقسوته وطغيانه، وسوء سيرته، لذلك كرهه شعبه، عامته وكبراؤه، فتآمر ضده زعماء المملكة وأجمعوا أمرهم على أن يخلعوه ويولوا أخاه عمرًا مكانه، واستجاب عمرو لما رآه الناس فخلع أخاه حسان ونصب نفسه أميرا على البلاد، ثم أشار عليه جماعة من مساعديه أن يقتل أخاه حسانا، ورغبوه في ذلك، وحذوره من كيده، وخوفوه أنه يمكن له أن يتآمر عليه ويثور ضده، ويقتله عقابا له ؛ لأنه انتزع منه العرش، ووعده أعوانه بالمؤازرة إذا قتل أخاه وحسنوا له ذلك، وبينوا أن في ذلك الأمان والضمان لاستمراره في حكم البلاد.

ولكن رجلا واحدًا من أعوانه هو ذورعين الحميري حذره خطورة ذلك، وخوفه من الإقدام عليه ؛ لأن من يقتل أخاه حتما يندم، ويقاسي الألم، ويفر منه النوم ويعيش متحسرا كئيبا، لأن جريمة القتل سيئة وتكون أسوأ ما تكون إذا كان الضحية شقيق القاتل فيندم ندم قابيل الذي قتل أخاه هابيل فعاش نادما بقية عمره وبين ذورعين لعمرو أنه في هذه الحالة سيسخط على من زين له قتل أخاه وساعده على تنفيذه، وربما يعاقبهم، وبذلك فهو يخسر أعوانه وأصدقاءه، لكن الملك الجديد عمرو خاف من الملك القديم حسان، وأصر على قتله والتخلص منه ولم يفكر في العواقب

---

(١) دولة من دول اليمن قبل الإسلام.

بسبب اندفاعه، وهنا طلب منه ذورعين أن يكتب له ورقة ويعطيها إياه، ويحتفظ بها كوديعة عنده.

وأخذ الملك الورقة من الرجل وختمها بخاتمه، ثم دفعها إلى خازنه، وأمره أن يحتفظ بها إلى أن يسأله عنها.

وقتل الأخ أخاه، ومضت الأيام والسنون فاستيقظ ضمير عمرو وشعر بالندم إذ كان يتمثل له شبح أخيه القتيل في الليل وفي النهار في الصحو وفي المنام، في قصره وفي خارج قصره، وهو جالس وهو يمشي، وهو منفرد وهو بين رعيته، وازداد الأمر سوءًا فكان يرى الأفق أحمر بلون الدم، بل استحال لون النهار الأبيض إلى سواد مرة وإلى لون الدم مرات ومضت الأيام فامتنع عليه النوم وتسلط عليه السهر، واشتد الأمر، فلم يدع طبيبا، ولا كاهنا، ولا منجما، ولا عرافا، إلا أتى به وعرض عليه حاله، وحكى له ما يعاني ويقاسي فقال له جميعهم:

ما قتل رجل أخاه، أو ذا رحم منه على نحو ما قتلت أخاك إلا أصابه السهر وامتنع عليه النوم.

ولما سمع عمرو كلامهم ازداد غيظه واشتد حنقه على من زين له قتل أخيه فأحال حياته إلى جحيم، فجمع من ساعده في ذلك من أقيال [1] حمير، فقتلهم واحدا بعد الآخر حتى أفناهم، وجاء الدور على ذي رعين ليقدم للقتل فقال للملك:

أنا لي عندك ما يثبت براءتي. فقال الملك:

وما براءتك؟ قال ذو رعين:

مر خازنك أن يخرج الصحيفة التي طلبت أن أحفظها عندك يوم كذا وكذا، فأمر الملك خازنه فأخرجها، فنظر إلى خاتمه ثم فضها فإذا به يقرأ:

(١) جمع قيل: وهم كبراء القوم ورؤساؤهم.

ألا مـــن يشـــتري ســـهرًا بنـــوم   ســـعيد مـــن يبيـــت قريـــر عـــين
فأمـــا حمـــير غـــدرت وخانـــت   فمعـــذرة الإلـــه لـــذي رعـــين

فأدرك الملك أن الرجل صادق النصيحة، وأنه سبق له أن حذره من قتل أخيه فعفا عنه.



هند تنتقم

علم الحجاج بن يوسف الثقفي حاكم العراق من قبل الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان بما تمتعت به هند بنت النعمان بن بشير الأنصاري من جمال باهر وخلق فاضل وعقل راجح فأحب أن يتزوجها، فأرسل إليها يخطبها، ثم تزوجها بعد أن شرط لها صداقا قدره مائتا ألف درهم، ودخل عليها ذات يوم فوجدها تنظر في المرآة وتقول:

وما هند إلا مهرة عربية ... سليلة أفراس تحللها [1] بغل

فإن ولدت مهراً فلله درها ... وإن ولدت بغلا فقد جاء به البغل

وسمع الحجاج قولها، فانصرف دون أن تدري به، وأرسل لها عبد الله بن طاهر ومعه صداقها، وأمره أن يطلقها بكلمتين ليوجعها.

توجه عبد الله إلى هند فاستأذن ودخل عليها وقال:

يقول لك أبو محمد الحجاج (كنت فبنت) وهذه المائتا ألف درهم التي كانت لك قبله، فقالت هند: اعلم يا ابن طاهر أنا والله كنا فما فرحنا وبنا فما حزنا، وهذا المال الذي جئت به بشارة لك بخلاصي من الحجاج.

وبلغ بعد ذلك خبرها عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي في دمشق، ووصف له جمالها، وذكاؤها فأرسل إليها يخطبها، فكتبت إليه:

يا أمير المؤمنين والله لا أحل العقد إلا بشرط، فإن قلت ما هو الشرط قلت: أن يقود الحجاج محملي من المعرة[2] إلى بلدك التي أنت فيها، فأرسل

---

(١) تزوجها.

(٢) اسم بلدة نسبت إلى أبيها النعمان بن بشير فكانت تسمى معرة النعمان وكانت تقيم بها.

عبد الملك إلى الحجاج يأمره بذلك، فامتثل الحجاج لأمر الخليفة وأرسل إلى هند يطلب منها أن تتجهز، وتجهزت هند وركبت في محمل الزواج، ولما اقتربت من دمشق حيث يقيم الخليفة رمت دينارًا على وجه الأرض، ونادت على الحجاج:

يا هذا سقط منا درهم، فارفعه إلينا فنظر الحجاج إلى الأرض فلم يجد إلا دينارا فقال:

إنما هو دينار... فقالت هند:

الحمد لله، سقط منا درهم فعوضنا الله دينارًا.





أسس العرب مملكة الحيرة في شمال الجزيرة العربية ناحية العراق وكان من أشهر ملوكها الملك المنذر بن ماء السماء الذي كان رجلا عظيما وملكا قويا، أحبه وجهاء العرب؛ لأنه كان يفتح قصره للضيوف والغرباء، ويبذل لهم الأعطيات والهدايا من الإبل والأموال، فأقبل عليه العلماء والشعراء يقتربون منه، يعايشونه، ويمدحونه بل إن بعضهم كان يعيش في قصره عيشة دائمة.

ولم يكن يعيب هذا الملك العربي العظيم الذي عاش في الحيرة قبل الإسلام إلا إنه كان يسرف في الشراب، فإذا أسرف وتغيب عقله كان يأتي بأفعال غريبة، قد تكون غاية في السوء ثم يندم بعد أن يفيق فيعالج الخطأ بخطأ أفدح فقد كان المنذر ينادم رجلين من بني أسد أولهما خالد بن المضلل وثانيهما عمرو بن مسعود بن كلدة، فأغضباه ذات يوم، إذ إنهما راجعاه بعض القول على شدة سُكره، فغضب، فأمر بأن يحفر لكل واحد حفيرة بظهر الحيرة، ثم يجعلا في تابوتين، ويدفنا في الحفرتين، وقد تم ذلك تنفيذا لأمره، فلما أصبح وكان أثر الخمر قد زال عنه سأل عنهما، فعلم بهلاكهما فندم على ذلك وغمه، ثم ركب حتى نظر إليهما فأمر بإقامة بناء لكل واحد منهما دفن فيه ثم أمر بإبل فنحرت على قبريهما، وغرّي (دهن) بدمائها القبرين إعظاما لهما، وحزنا عليهما وسمي القبران غريين ؛ لأن التغرية في اللغة بمعنى التطلية، أما وقد طليا بالدماء فقد صار اسم القبرين الغريين عند العرب واشتهرا بذلك ويرجع سبب الشهرة أن المنذر قد اتخذ لنفسه عادة وسن سنة التزم بها واشتهرت عند العرب هذه العادة كانت

ترتبط بالغريين ذلك أنه جعل لنفسه في السنة يومين يجلس فيهما عند الغريين يسمى أحدهما يوم نعيم، والآخر يوم بؤس، فأول من يطلع عليه يوم نعيمه يعطيه مائة من الإبل، وأول من يطلع عليه يوم بؤسه يعطيه رأس ظربان[1] أسود، ثم يأمر به، فيذبح ويغرى بدمه الغريان.

ولبث بذلك مدة من الدهر، ولم يزل كذلك حتى مر به في أحد الأعوام رجل من طيء يقال له: حنظلة بن أبي عفراء فقال له:

أبيت اللعن... أتيتك معينا لي على دهري

فقال الملك:

من أين أتيت؟ فقال الرجل:

من بادية الحجاز... فسأله المنذر:

وماذا كنت تعمل في بلادنا؟ قال:

كنت أبيع بضاعتي في الأسواق.

وسكت الملك مدة وبدا عليه الحزن، وهو يقول للرجل:

إنك رجل سيئ الحظ أنت اليوم أول قادم، وهذا يوم البؤس، وسأقطع رقبتك كما تعودت أن أفعل وانتفض الأعرابي فزعا وصاح.

أبيت اللعن لقد أتيتك زائرًا، ولأهلي من خيرك مائرًا[2] فلا تكن ميرتهم قتلي فقال المنذر:

لا بد من ذلك، ولو أن النعمان ابني عرض لي في يوم البؤس لذبحته، فاسأل أي حاجة أقضيَّنها لك فقال حنظلة:

تؤجلني سنة، أرجع فيها إلى أهلي، وأحكم من أمرهم ما أريد، ثم أعود إليك، فأنفذ فيّ حكمك.

---

(١) الظربان: حيوان في حجم القطة الصغيرة أصلم الأذنين قصير القوائم منتن الرائحة.

(٢) طالبا لقوت أهله.

فقال الملك:

أنت تخدعني بهذا الكلام، هل يمكن أن تعود إلينا بعد أن تصبح في بلادك حرا طليقا كي تقتل؟ هل يمكن أن يسعى أحد إلى قتل نفسه؟ !!
قال حنظلة:

إنني عربي والعربي إذا وعد وفى بعهده، ولو كان في ذلك انتهاء أجله، وسوف أكون صادقا وأفي بعهدي.

صمت المنذر برهة وقد ظهر التأثر على وجهه وتبدى حزنه وإشفاقه على حنظلة، ثم قال: قد قبلت وعدك يا حنظلة، وقبلت أن تذهب إلى قومك وتصلح شأنك وتعود بعد عام، ولكن أطلب منك ضمانًا لهذا الوعد، قال حنظلة:

أي ضمان أبيت اللعن. قال المنذر:

شخص يضمن عودتك.

فنظر حنظلة في وجوه القوم من حول المنذر فعرف عمرو بن شريك فتوجه إليه راجيا أن يضمن عودته فقال شريك:

أبيت اللعن يدي بيده، ودمي بدمه إن لم يعد إلى أجله.

وأطلق المنذر حنظلة، وتوجه حنظلة إلى بلاده فراح يصلح شأنه، ويقضي ديونه، وينظم أحوال أهله، واطمأن إلى أنه هيأ لهم سبيل الحياة وفي فجر أحد الأيام ركب راحلته وخرج متخفيا عائدًا ليفي بعهده فيلقى المصير المحتوم.

وبينما الرجل في سفره حل يوم الميعاد فجلس المنذر عند الغريين، وحوله حاشيته ووزيره ومعهم السياف الذي سيقوم بإعدام حنظلة الذي تأخر قدومه، إذ إن وقت الضحى قد جاء ثم الظهر، ثم العصر، ولم يحضر، فظهر الحزن على الوجوه، واضطرب القلق في العيون، إذ اعتقدوا أن

حنظلة قد أخلف وعده وأن القتل سيقع على عمرو بن شريك الذي ضمنه، وحزن الناس لأجله إذ كان يتمتع بمروءة وشهامة، ويحظى بالحب والتقدير وشعر الناس بالعطف نحوه، إذ هو ضحية مروءته وشهامته.

وانحدرت الشمس نحو المغيب وبدت أشعتها الحمراء بلون الدم الذي سوف يسيل من جسد الرجل الكريم ذي النجدة والمروءة، وهيأ السياف نفسه ليتلقى الأمر بالتنفيذ، ومعه سيفه الطويل ببريقه المخيف وهو واقف أمام المنصة الخشبية التي يوضع فوقها الضحية كي يلقي حتفه واصطفت الجنود على جوانب الساحة، ونزل إليها الملك وجيء بعمرو مقيد اليدين، وأسند إلى عمود مطوقا بالحبال في وسط المنصة انتظارا لتنفيذ الحكم.

واقتربت الشمس من المغيب ولم يحضر حنظلة، وخيم على الجميع صمت رهيب، وأصدر المنذر أمره إلى السياف أن يستعد.

وحينما رفع السياف يده بالسيف ليهوي على رقبة عمرو بن شريك صرخ واحد من رجال الحاشية:

قف أيها السياف قف أيها السياف.

وحدث هرج واضطراب في صفوف الجمع المحتشد وتساءل الملك.

ما الذي حدث؟ فقال أحد رجال الحاشية:

إني أرى شبحا قادمًا من بعيد، لعله حنظلة أيها الملك... لعله حنظلة.

ونظر المشاهدون وهم فرحون إلى هذا الشبح فتبين لهم أن الشبح لرجل قادم نحوهم، وكلما مر الوقت أخذت حقيقة الشبح تتضح.

إنه حنظلة يأتي مسرعا نحو الساحة، وتنهد الجميع في ارتياح إذ كان الجميع يتعاطفون مع ذلك الرجل الشهم ذي المروءة الذي بادر وضمن حنظلة وعرض رقبته للسيف وحياته للخطر.

لقد وصل حنظلة قبل غروب الشمس بدقيقتين ففك السياف قيود عمرو واتجه حنظلة مادا يديه وقدميه للسياف كي يقيده.

ونظر الملك إلى حنظلة فأطال النظر وكان كلما أطال النظر يبدو العجب على وجهه وفجأة صاح:

ماذا جاء بك يا حنظلة؟ فقال:

الوفاء بالوعد أيها الملك.

قال الملك:

ولو كان في ذلك قطع رقبتك ونهاية حياتك قال حنظلة:

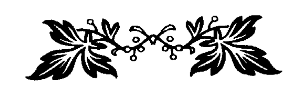
إذ لم أحضر أبيت اللعن كنت ستقطع رقبة هذا الرجل الكريم عمرو بن شريك الماجد النبيل الذي أتاح لي فرصة أديت واجبي خلالها نحو أهلي.

سكت المنذر لحظة ثم قال بصوت مرتفع:

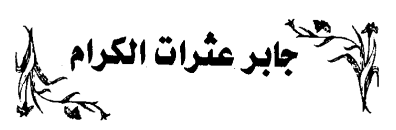
يا حنظلة لقد كنت شجاعا كريما، وكان عمرو ماجدًا نبيلا، ووالله لا أكون أقل منكما شجاعة وكرما ونبلا، لقد عفوت عنك يا حنظلة ثم نظر إلى رجال الحاشية وقال:

لقد أبطلت هذه العادة السيئة وتعانق حنظلة مع عمرو بن شريك.

وحيا الملك الرجلين وأمر لهما بهدايا قيمة.







جابر عثرات الكرام

عاش خزيمة بن بشير الأسدي بأرض الجزيرة[1] بالعراق في زمن الدولة الأموية خلال حكم سليمان بن عبد الملك وكانت نعمته وافرة وعيشه رغيد، وكان يتمتع بالثراء الخلقي إلى جانب الثراء المادي، إذ كان معروفا بالمروءة والكرم ومشهورًا بمواساة من تحل به نكبة.

ولقد عاش خزيمة زمنا ناعم البال ممتعا بثروته وتقدير المجتمع له لمآثره ومروءته، ولم يزل على تلك الحال حتى قلب له الدهر ظهر المجن فتوالت عليه المحن حيث فقد الكثير من ماله، فاحتاج إلى إخوانه يواسونه بعد أن كان يواسيهم، ويتفضلوا عليه بعد أن كان يتفضل عليهم، فواسوه حينا، وساعدوه زمنا، ثم ملّوه، فلما لاح له تغير حالهم أتى امرأته، وكانت بنت عمه فقال لها: يا بنت العم، لقد رأيت من إخواني الجفاء وشاهدت منهم تغيرا وإعراضا، وقد عزمت على لزوم بيتي إلى أن يأتينيَ الموت.

وفعلا أوى إلى بيته وجعل يتقوت بما عنده حتى نفد.

وذات يوم كان والى الجزيرة عكرمة العياض في مجلسه فجاء ذكر خزيمة، فأخبره الحاضرون خبره وشرح له أحدهم حاله فقال عكرمة:

أما وجد خزيمة مواسيا ولا مكافئا، ولما جن الليل عمد إلى أربعة آلاف دينار، فأخذها، وركب دابته، ومعه غلام يحمل المال، حتى وصل إلى خزيمة، فدفعها إليه، فقال خزيمة:

من أنت فقال عكرمة: مما جئت في هذا الظلام وأريد أن أعرف.

---

(١) منطقة بين نهري دجلة والفرات.

فقال خزيمة:

أقسمت ألا أقبلها حتى أعرف من أنت، فقال عكرمة:

أنا جابر عثرات الكرام.

قال خزيمة: زدني إيضاحا.

قال: لا، ثم مضى عكرمة، فلما رجع إلى منزله وجد امرأته في قلق، وقد ارتابت في خروجه بالليل، فأخبرها بما فعل وطلب منها الكتمان ليكون عمله لله خالصا.

وحين أخذ خزيمة المال نهض ومارس حياته، فأصلح بالمال شأنه، ودفع ديونه، ثم تجهز وذهب إلى دمشق ليلقى الخليفة سليمان بن عبد الملك، فلما دخل سلم بالخلافة فقال سليمان:

ما أبطأك عنا؟ قال خزيمة:

ضيق الحال يا أمير المؤمنين. إلى أن قيض الله لي جابر عثرات الكرام، فقال سليمان:

لو عرفنا جابر عثرات الكرام لأعناه على مروءته.

ثم عقد سليمان لخزيمة ولاية الجزيرة بدلا من عكرمة، فلما وصل خزيمة إلى الجزيرة نزل في دار الإمارة، وأمر أن يؤخذ عكرمة فيحاسب على ما تحت يده من مال، فظهر قبل عكرمة أربعة آلاف دينار، طالبه بها خزيمة فقال:

ما لي إلى ردها من سبيل، فأمر خزيمة بوضعه في السجن مقيدًا بالأغلال.

وأقام عكرمة في السجن حتى أضناه القيد فلما علمت زوجته بذلك أرسلت جارية إلى خزيمة وطلبت منها أن تقول له:

أهكذا يكون جزاء جابر عثرات الكرام.



فلما سمع خزيمة ذلك قال:

واسوأتاه... جابر عثرات الكرام غريمي، ثم ذهب توا إلى السجن، ففك قيود عكرمة، وقبل رأسه، واعتذر إليه، ثم سارا معا إلى الخليفة سليمان بن عبد الملك ليعرف من جابر عثرات الكرام.

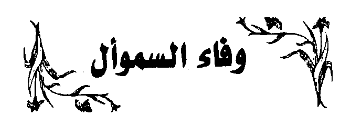
والتقى الرجال الثلاثة، وعرف سليمان ما حدث، فقال لعكرمة:

لقد كان برك وبالا عليك، ثم عقد سليمان لعكرمة الولاية على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان، وقال له:

أمر خزيمة إليك، إن شئت أبقيته، وإن شئت عزلته، فقال:

بل أبقيه فمكثا عاملين لسليمان مدة خلافته.





وفاء السموأل

عاش السموأل بن عادياء في حصنه الأبلق الموجود في تيمياء بشبه الجزيرة العربية يتمتع بالسيرة العطرة والسمعة الطيبة لكرم خلقه وبذله ونداه، فكانت العرب تنزل بحصنه ذي الموارد الطيبة من الطعام والماء حيث كان قد احتفر فيه بئرًا روية عذبة، وكان الشعراء يفدون عليه يمدحونه وينالون نواله وفضله ولكثرة ما كانت العرب تفد عليه أقاموا هناك سوقا يجتمع فيه الناس ويتبادلون المنافع.

وذات يوم طرقه الشاعر المشهور امرؤ القيس الذي كان يمر بظروف قاسية بعد أن قتل بنو أسد أباه حجر ملك كنده، وصار مطالبا بالأخذ بثأره بعد أن قضى ما فات من عمره في اللهو وشرب الخمر وقاد قومه في حرب طاحنة ضد بني أسد وتطرف امرؤ القيس في القتال حتى مله قومه خاصة بعد أن أغار على بني كنانة الذين لم يساهموا في قتل أبيه أو الإساءة إلى قومه من قبيلة كنده، وكره أصحابه فعله وتفرقوا عنه حتى بقي وحده، ولم يعد أمامه من ملجأ إلا الهرب حيث يطارده أعداؤه، وطلبه المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة المنتمي إلى أكاسرة الفرس، ووجه في طلبه الجيوش من القبائل التي تلوذ به وترضى بحمايته، وهي قبائل إياد، وبهراء وتنوخ، بل وأمده كسرى أنوشروان بجيش من الأساورة وخذلته قبيلة حمير وتفرق أبناؤها عنه وفكر امرؤ القيس في قوة تحميه فوجد أنه لم يعد أمامه إلا أن يلجأ إلى قيصر الروح وذلك من خلال الدولة العربية المناصرة له في شمال الجزيرة العربية وهي دولة الغساسنة وتحرك امرؤ القيس من الجنوب متجها إلى الشمال ومعه بنته هند وابن عمه يزيد بن الحارث ورجل من

فزارة يقال له الربيع بن ضبع كان شاعرا، وكان أيضا معه أمواله وسلاحه، وكان سلاحا أثيرا يعتز به، إذ كان أدراعا خمسة هي: الفضفاضة، والضافية، والمحصنة، والخريق وأم الذيول، وكانت الملوك من آبائه وأجداده ملوك كندة يتوارثونها جيلا بعد جيل ملكا عن ملك.

واقترب الركب الصغير من تيماء حيث يقيم السموأل بن عادياء في حصنه المنيع: الأبلق فاقترح الربيع بن ضبع الفزاري أن يمدح امرؤ القيس السموأل ؛ لأنه رجل يعجبه الشعر، وقال له إن السموأل يمنعك وهو في حصن حصين، ومال كثير، فاتجها إليه وأنشداه الشعر، فعرف لهما حقهما، وضرب على هند قبة من أدم [1] وأنزل القوم في مجلس له براح، وأقاموا لديه ضيوفا أعزاء.

ثم إن امرأ القيس طلب منه أن يكتب له رسالة يحملها إلى ملك الغساسنة الحارث بن أبي شمر الغساني كي يوصله إلى قيصر الروم، فحقق له السموأل رغبته وكتب له ما شاء، واستصحب معه رجلا يدله على الطريق، وأودع ابنته وماله وأدرعه السموأل ورحل إلى الشام، وخلف ابن عمه يزيد بن الحارث مع ابنته هند.

وعلم المنذر بن ماء السماء أن امرأ القيس توجه إلى السموأل فوجه إليه أحد أتباعه وهو الحارث بن ظالم في خيل ورجال وأمره أن يأخذ مال امرئ القيس من السموأل.

فلما نزل ووصل إلى الحصن وأدرك السموأل غايته تحصن منه، ورفض أن يسلم ما لديه من أمانة.

وفجأة ظهر أمام الحصن المغلق والذي يقف أمامه الحارث بن ظالم ورجاله شاب يافع عرفه الحارث، إنه ابن السموأل كان قد خرج إلى قنص

(١) الجلد.

له، وقد عاد فأمسك به الحارث ثم قال للسموأل:

أتعرف هذا؟ قال:

نعم... هذا ابني قال الحارث:

إن مصيره القتل إن لم تسلم ما طلبته منك.

قال السموأل:

شأنك فلست أخفر ذمتي ولست مضيعا أمانة عندي ولا أسلم مال جاري.

وهنا أدرك الحارث أن السموأل مصمم على موقفه فامتلأ قلبه بالغيظ وضرب وسط الغلام بالسيف فقطعه قطعتين والسموأل يطل على المشهد الأليم فأشاح بوجهه بعيون دامعة وقلب حزين، وعرفت العرب وفاءه وقدرت مروءته وتضحيته وضربت المثل بذلك فكانت تقول: "أوفى من السموأل".





العهد

سقطت الخلافة الأموية وانتهى ملكهم واختفى رجالهم وقامت الخلافة العباسية وآل الملك والحكم إلى بني العباس، وكان ممن اختفى من الأمويين إبراهيم بن سليمان الأموي وظل مختفيا إلى أن تشفع له عند الخليفة بعض أصدقائه، فمنحه الخليفة الأمان، ثم قربه منه فكان يحضر مجلسه، وذات يوم قال له الخليفة:

حدثني عن أغرب ما مر بك زمن اختفائك. فقال خرجت هائما على وجهي، أبحث عن مكان آمن أختبئ به، حتى أتيت الكوفة، ونظرت فإذا باب كبير، ورأيت رجلا نظيف الهيئة، فقال لي:

ما حاجتك؟ فقلت:

خائف يستنجد بك. فأدخلني منزله، وبقيت عنده حيث أكرم ضيافتي، وأحسن مقامي، ولاحظت أنه في كل يوم يركب فرسه مع الفجر، ويعود بعد الظهر.

فقلت له يوما:

أراك تحب ركوب الخيل. فقال: لا، ولكني أبحث عن رجل مختبئ في الحيرة، أتمنى أن ألقاه ؛ لأن لي عنده ثأرا، فقد قتل أبي. فقلت له:

ومن هذا الرجل؟ قال:

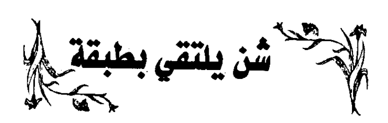
إبراهيم بن سليمان الأموي، فتملكني الخوف، وتمالكت وأدركت أنني دفعت بنفسي إلى حتفي، فقلت: يا رجل... ها أنا ذا إبراهيم بن سليمان الذي تبحث عنه، فخذ بثأرك مني فلما سمع كلامي تغير لونه،

واحمرت عيناه ثم فكر طويلا وقال:

أما أنت فسوف تلقى أبي عند حاكم عادل يأخذ حقه منك.

وأما أنا فلا أنقض عهدي في حمايتك، ولكن أرغب أن تبتعد عني، فلست آمن عليك من نفسي، وقدم ألف دينار، فرفضت أن آخذها منه، وشكرته وانصرفت.





شن يلتقي بطبقة

كان شن من دهاة العرب، وحين أراد أن يتزوج قال في نفسه:

والله لأطوفن حتى أجد امرأة مثلي فأتزوجها.

وخرج مسافرًا فلقي رجلا يريد نفس القرية التي يقصدها شن، فصحبه، فلما انطلقا قال شن للرجل:

أتحملني أم أحملك، فقال الرجل:

يا جاهل كيف يحمل الراكبُ الراكب إذ كان كل منهما يركب ناقته وسارا حتى وجدا زرعا قد حان وقت حصاده وأوشك على النضج فقال شن:

أترى هذا الزرع قد أكل أم لا؟ فقال الرجل:

يا جاهل أما ترى الزرع قائما؟ وفي الطريق مرا بجنازة فقال شن:

أترى صاحبها حيا أم ميتا؟ فقال الرجل: ما رأيت أجهل منك، أتراهم حملوا إلى القبور حيا؟ ثم سار الرجل إلى منزله، وكانت له ابنة تسمى طبقة، فقص عليها قصته من الرجل الذي صحبه وحديثه معه فقالت:

يا أبت أما قوله: أترى هذا الزرع قد أكل يقصد قائله أن يسأل: أباعه أهله فأكلوا ثمنه أم لا.

وأما قوله في الميت، فإنه يسأل هل ترك عقبا يحيا به ذكره أم لا؟!

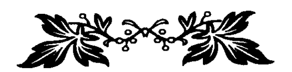
وأما قوله في البداية: أتحملني أم أحملك فإنه أراد هل تحدثني أم أحدثك حتى نقطع طريقنا.

وخرج الرجل إلى شن فحدثه بما سمع من ابنته فأعجب بها قبل أن

يراها، وقال لأبيها:

هذا فعلا ما قصدته وخطبها فزوجه إياها، ثم حملها إلى أهله، وعرفوا عقلها ودهاءها قالوا:

وافق شن طبقة فصار قولهم ذلك من أمثال العرب.





فراسة



جلس الخليفة العباسي المستنصر بالله يراقب العمال الذين يبنون قصره الجديد، فرأى من بينهم غلاما أسود الخلقة شديد المرح، يصعد السلم درجتين درجتين، ويحمل ضعف ما يحمله العمال الآخرون؛ فأنكر أمره، فأحضره، وسأله عن سبب ذلك، فلجلج، فقال الخليفة لابن حمدون وكان حاضرا:

أي شيء يقع لك في أمره، فقال:

ربما كان لا عيال له، فهو خالي القلب، فقال الخليفة:

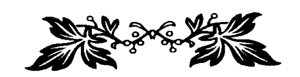
ويحك. قد خمنت في أمره تخمينا، ما أحسبه باطلا، إما أن يكون معه دنانير، قد ظفر بها من غير وجهها، أو يكون لصا يتستر بالعمل في البناء فعارضه ابن حمدون في تخمينه، فقال الخليفة:

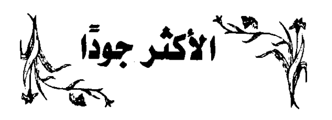
هاتوا الشاب، ثم أمر بضربه مائة مقرعة، ثم قرره، وأخبره إن لم يصدقه سيضرب عنقه، ثم أمر بإحضار السيف والنطع، فقال الشاب، ولي الأمان؟ فقال الخليفة:

لك الأمان إلا ما يجب عليك فيه من حد، فلم يفهم الشاب ما قاله الخليفة، وظن أنه قد أمنه فقال:

كنت أعمل في أتون (فرن) لصنع الآجر (الطوب) وكنت منذ شهر جالسًا، فمر بي رجل قد شد على وسطه كيس نقود، فتتبعته حتى إذا جلس، وهو لا يعلم مكاني حل الكيس الذي يربطه على وسطه، وأخذ منه دينارًا، فتأملته فإذا هو قد امتلأ بالدنانير، فأسرعت إليه وكتفته، وسددت فمه، وأخذت الكيس وحملت الرجل على كتفي، وطرحته في نقرة

ووضعت عليه الطين، وبعد ذلك أخرجت عظامه، فرميت بها في نهر دجلة، والدنانير يقوى بها قلبي، فأمر الخليفة أحد رجاله بإحضار الدنانير من منزله، وتأمل الكيس فوجده مكتوبا عليه (لفلان ابن فلان) فنودي في البلدة باسمه، فجاءت امرأة وقالت: هذا زوجي، ولي منه هذا الطفل، وخرج في وقت كذا، ومعه كيس نقود، فيه ألف دينار، وغاب إلى الآن، فسلم الخليفة إليها الدنانير، وأمرها أن تعتد لوفاة زوجها، ثم أمر بضرب عنق الشاب، وحمل جثته إلى الأتون.





الأكثر جودًا

كان معن بن زائدة من رجالات الدولة الأموية، وقد علا نجمه وذاع صيته، وكرم اسمه لجوده ومروءته وقوة شخصيته فأنزله الحكام الأمويون منزلا كريما، ومدحه الشعراء وأثنى عليه القاصي والداني، فلما سقطت دولة بني أمية وانتقلت الأمور إلى بني العباس، تعقبوا أنصار البيت الأموي.

يقول معن:

جد أمير المؤمنين المنصور في طلبي وجعل لمن يحملني إليه مالا فاضطررت لشدة الطلب إلى أن تعرضت للشمس حتى لوحت وجهي وخففت عارضي (شعري) على صفحة الخد، ولبست جبة صوف وركبت جملا وخرجت متوجها إلى البادية لأقيم فيها، فلما خرجت من باب حرب وهو أحد أبواب بغداد تبعني أسود متقلد بسيف حتى إذا غبت عن الحرس قبض على خطام الجمل فأناخه، وقبض على يدي، فقلت:

ما لك؟ فقال:

أنت طلب أمير المؤمنين. فقلت:

ومن أنا حتى أطلب؟ قال:

أنت معن بن زائدة، فقلت له:

يا هذا اتق الله وأين أنا من معن. قال:

دع هذا فوالله إني لأعرف بك منك. فلما رأيت منه الجد قلت له:

هذا جوهر حملته معي بأضعاف ما جعله المنصور لمن يجيئه بي، فخذه ولا تكن سببا في سفك دمي، قال: هاته، فأخرجته إليه فنظر إليه ساعة،

وقال: صدقت في قيمته، ولست قابله حتى أسألك عن شيء، فإن صدقتني أطلقتك، فقلت:

قل. قال:

إن الناس قد وصفوك بالجود، فأخبرني هل وهبت مالك كله قط.

قلت: لا. قال: فنصفه، قلت: لا.

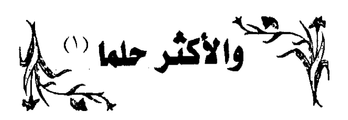
قال: فثلثه، قلت لا، حتى بلغ العشر فاستحييت، وقلت: أظن أني فعلت هذا قال:

وما ذاك بعظيم، أما عني فرزقي من الخليفة كل شهر عشرون درهما، وهذا الجوهر قيمته ألوف الدنانير، وقد وهبته لك، ووهبتك لنفسك ولجودك المأثور بين الناس، ولتعلم أن في هذه الدنيا من هو أجود منك، فلا تعجبك نفسك ولتحقر بعد هذا كل جود فعلته، ولا تتوقف عن مكرمة، ثم رمى العقد في حجري، وترك خطام الجمل وولى منصرفا فقلت:

يا هذا قد والله فضحتني، ولسفك دمي أهون علي مما فعلت، فخذ ما دفعته لك فإني غني عنه، فضحك، وقال: أردت أن تكذبني في مقالي هذا، والله لا أخذه، ولا أخذ لمعروف ثمنا أبدًا.

ومضى إلى سبيله، فوالله لقد طلبته بعد أن أمنت ووليت بلاد اليمن، وبذلت لمن يجيء به ما شاء فما عرفت له خبرا، وكأن الأرض ابتلعته.





والأكثر حلما [1]

حين ذاع صيت معن بن زائدة في كل الأرجاء، وتناقل الناس ما اتصف به من الحلم وسعة الصدر حتى في أحرج المواقف التي تهيج لها الصدور، تراهن أعرابي مع آخرين، وأخذ على نفسه أن يغضبه مقابل (جُعْل) يأخذه منهم وكان مائة بعير، وإذا أخفق دفع لهم مثلها، فعمد إلى بعير فسلخه، وارتدى جلده، ودخل على معن، وهو يومئذ وال على إحدى جهات العراق، وأنشد يقول من غير تحية:

أتذكر إذ لحافك جلد شاة، وإذ نعلاك من جلد البعير.

فقال معن:

أذكر ولا أنساه، فقال الأعرابي:

فسبحان الذي أولاك ملكا، وعلمك الجلوس على السرير.

فقال معن:

إن الله يعز من يشاء ويذل من يشاء، فقال الأعرابي:

فلست مسلما ما عشت دهرا ... على معن بتسليم الأمير

فقال معن:

السلام خير، وليس في تركه ضير، فقال الأعرابي:

سأرحل عن بلاد أنت فيها ... ولو جار الزمان على الفقير

فقال معن: إذا جاورتنا فمرحبا بالإقامة، وإن جاوزتنا فمصحوبا بالسلامة، فقال الأعرابي:

فجد لي يا ابن ناقصة بمال ... فإني قد عزمت على المسير

---

(١) عن كتاب قيم إسلامية للأستاذ عبد الحكيم المغربي.

فقال معن:

أعطوه ألف دينار تخفف عنه مشقة الأسفار.

فأخذها الأعرابي وقال:

قليـــل مـــا أتيـــت بـــه وإني   لأطمـع منـك في المـال الكـثير

فـثن فقـد أتـاك الملـك عفـوا   بـلا عقـل ولا رأي مسـتنير

فقال معن:

أعطوه ألف ثانيا كي يكون عنا راضيا.

فتقدم الأعرابي وقبل الأرض بين يديه وأنشد يقول:

سـألت الله أن يبقيـك دهـرا   فما لـك في البريـة مـن نظـير

فمنـك الجـود والإفضـال حقـا   وفيض يـديك كـالبحر الغزيـر

فقال معن:

أعطيناه على هجونا ألفين. فيعط على مدحنا أربعا، فقال الأعرابي:

بأبي أيها الأمير.... فإنك نسيج وحدك في الحلم، ونادرة دهرك في الجود، ولقد كنت في صفاتك ما بين مصدق ومكذب، فلما بلوتك صدق الخُبر الخَبر، وأذهب ضعف الشك قوة اليقين، وما دفعني إلى ما فعلت إلا مائة بعير جعلت لي على إغضابك فقال معن:

لا تثريب عليك، ووصله بمائتي بعير، فأخذها الأعرابي وانصرف، داعيا له، شاكرا لهباته معجبا بحلمه وجميل صفاته.



إبليس يغني

قال إبراهيم الموصلي وهو أشهر المغنين في العصر العباسي:

استأذنت هارون الرشيد في أن يهب لي في كل أسبوع يوما أخلو فيه مع جواري في بيتي (فلا يتردد على هارون) فأذن لي في يوم الأحد.

فلما كان في بعض الآحاد أتيت الدار فدخلت وأمرت الحجاب ألا يأذنوا لأحد علي وأغلقت الأبواب.

فما هو إلا أن جلست حتى دخل علي شيخ حسن السمت والهيئة على رأسه قلنسوة صغيرة، وفي رجله خفان أحمران، وفي يديه عصا مزينة بالفضة. فلما رأيته امتلأت غيظا وقلت:

ألم آمر الحجاب ألا يأذنوا لأحد؟ ثم فكرت وقلت:

لعلهم علموا من الشيخ ظرفا وهيئة فأحبوا أن يؤنسوني به في هذا اليوم.

وسلم الشيخ، فلما أمرته بالجلوس جلس، وقال: يا إبراهيم ألا تغنيني صوتا (لحنا)؟

فامتلأت غيظا [1] ولم أجد إلى رده سبيلا ؛ لأنه في منزلي، وحملته منه على سوء أدب العامة، فأخذت العود، وضربت وغنيت ووضعت العود، فقال: لم قطعت لحنك، فزادني غيظا، وقلت:

لا يسيدني ولا يكنيني ولا يقول أحسنت:

فأخذت العود فغنيت الثانية، فقال لي:

---

(١) لأنه ناداه باسمه ولم يكنه على رفعة قدره في الدولة في ذلك العصر.

أحسنت يا سيدي، ثم تناول العود، فوالله لقد أخذه فوضعه في حجره، ثم جسه من أن يكون ضرب بأنمله فوالله لقد خلت زوال نعمتي في جسه [(١)].

ثم ضرب وغنى:

وقــد زعمــوا أن المحــب إذا دنــا يمل وأن النأي[(٢)] يسلي من الوجــد
بكل تــداوينا فلــم يشــف مــا بنــا على أن قرب الدار خير مــن البعــد

فوالله لقد خلت كل شيء في الحجرة يتغنى معه، حتى الأبواب والستور والنمارق والوسائد وقميصي الذي على بدني.

ثم قال: يا أبا إسحاق هذا الغناء الماخوري[(٣)] تعلمه وعلمه جواريك ثم وضع العود من حجره، ثم قام إلى الدار، فلم أره فدفعت الأبواب فإذا هي مغلقة، فسألت الحجاب عن الرجل فقالوا:

لم يدخل عليك أحد حتى يخرج.

فأمرت بدابتي فأسرجت، وركبت من فوري إلى دار الخليفة فاستأذنت، فلما رآني قال:

ألم تنصرف من قبل على نية المقام في منزلك والخلوة بأهلك؟

قلت: يا سيدي، جئت بغريبة.

وقصصت عليه القصة، فقال الرشيد بعد أن ضحك حتى رفع الوسائد برجليه:

كان نديمك اليوم إبليس يا أبا إسحاق وددت لو أنه متعنا بنفسه كما متعك.

---

(١) أي يستبدل به الخليفة إبراهيم الموصلي.
(٢) النأي: البعد.
(٣) نوع من الغناء كان سائدا في ذلك الوقت.

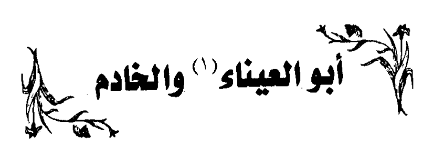


الخمر والطوب

قال رجل لإياس بن معاوية، وهو من أذكياء العرب المشهورين:
هل ترى علي من بأس إن أكلت تمرًا؟ قال:
لا، قال:
فهل ترى علي من بأس إن أكلت كيسوما [١] قال:
لا، قال:
فإن شربت عليهما ماء. قال:
جائز. قال:
فلم تحرم السكر، فإنما هو ما ذكرت لك.
فقال إياس:
لو صببت عليك ماء أكان يضرك؟ قال:
لا. قال:
فلو نثرت عليك ترابا هل كان يؤذيك؟
قال: لا، قال:
فإن أخذت ذلك فخلطته وعجنته وجعلت منه لبنة [٢] عظيمة فضربت بها رأسك؟ قال:
كنت تقتلني. قال معاوية:
فهذا مثل ذاك.

---

(١) الكيسوم: الحشيش.
(٢) اللبنة: الطوبة.



أبو العيناء[1] والخادم

مر أبو العيناء بسوق النخاسين (العبيد) فرأى غلاما ينادي عليه وقد بلغ ثمنه ثلاثين دينارا فاشتراه وكان حينئذ يبني دارا جديدة بمدينة البصرة، ودفع للخادم عشرين دينار ينفق منها على القائمين على أمر البناء، وبعد مدة يسيرة جاءه، وقال:

قد نفدت النفقة، فقال أبو العيناء:

هات حسابك. فقدم إليه حسابا بعشرة دنانير.

فقال أبو العيناء:

أين العشرة الثانية. فقال:

قد اشتريت لنفسي بها ثوبا، فقال أبو العيناء:

من أمرك بهذا؟ فقال:

لا تعجل يا مولاي، فإن أهل المروءة لا يعيبون على غلمانهم إذا فعلوا فعلا يعود بالنفع عليهم.

فقال أبو العيناء في نفسه:

أنا اشتريت الأصمعي[2] ولم أعلم.

وأراد أبو العيناء أن يتزوج امرأة أعجبته سرا من زوجته وابنة عمه فقال لفتاه:

أفيك خير؟ قال: إي وعمري، فأطلعه أبو العيناء على الخبر فقال له:

أنا نعم العون لك.

---

(١) أديب وشاعر عباسي كانت له نوادر وطرائف حفلت بها كتب الأدب.

(٢) الأصمعي من كبار رجال اللغة والأدب.

وتزوج أبو العيناء المرأة، وذات يوم دفع دينارا لخادمه، وقال له:

اشتر لنا بعض السمك الهازبي[١].

فمضى ورجع وقد اشترى سمكا من صنف آخر. وقال:

ألم آمرك أن تشتري من السمك الهازبي؟ قال:

بلى، ولكن الطبيب بقراط كتب يقول: إن الهازبي يولد السوداء[٢]، وهذا سمك أقل ضررا.

فقال أبو العيناء بعد أن شتمه:

أنا لم أعلم أني اشتريت جالينوس[٣].

ثم قام أبو العيناء وضرب الخادم عشر مقارع، فلما فرغ من ضربه أخذ الخادم المقرعة وضرب أبا العيناء سبع مقارع، وقال:

يا مولاي الأدب ثلاث، والسبع أفضل، وذلك قصاص فضربتك هذه السبع خوفا من القصاص يوم القيامة.

واغتاظ أبو العيناء، فرماه فشجه، فمضى الخادم إلى زوجته الأولى وابنة عمه، وقال:

يا مولاتي إن الدين النصيحة، وقد قال النبي ﷺ: «**من غشنا فليس منا**»، وأنا أعلمك أن مولاي قد تزوج فاستكتمني، فلما قلت له لا بد من تعريف مولاتي الخبر ضربني وشجني.

وغضبت الزوجة فمنعت زوجها وابن عمها من دخول دارها، وحالت بينه وبين ما في الدار، وهنا أدرك أبو العيناء أن الأمر لن ينصلح إلا إذا طلق زوجته الثانية فطلقها.

---

(١) نوع من السمك.

(٢) السوداء: مرض يؤدي إلى فساد الفكر.

(٣) بقراط وجالينوس من أشهر أطباء الإغريق.

وفكر أبو العيناء في أمر الخادم فوجد أنه من الخير لنفسه أن يتخلص منه ويستريح، فأعتقه، لكن الخادم لم يمض عنه، وإنما لزمه، وقال له:

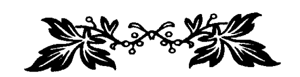
الآن وجب حقك علي.

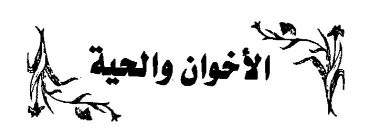
ولما حل موسم الحج أراد أن يحج، فجهزه أبو العيناء وزوده، وخرج مسافرًا ولكنه رجع بعد مدة فسأله:

لم رجعت؟ فقال الخادم:

فكرت وأنا في الطريق فتذكرت قول الله عز وجل: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ [آل عمران: ٩٧] ولأني غير مستطيع وجدت حقك أوجب علي، فرجعت.

وبعد مدة أراد الغزو والمشاركة في الجهاد فجهزه أبو العيناء، ولما غاب عنه وسافر مع المجاهدين بادر أبو العيناء فباع داره بالبصرة، وكل ماله من عقار وخرج مغادرا إياها خوفا من رجوع الخادم.





الأخوان والحية

خرج أخوان في العصر الجاهلي مسافرين، فنزلا في ظل شجرة، فلما استراحا وقررا استئناف السفر خرجت إليهما حية تحمل دينارا وألقته إليهما فقالا:

إن هذا لمن كنز.

وأقاما الأخوان ثلاثة أيام، كانت الحية تخرج إليهما كل يوم بدينار، فقال أحدهما لصاحبه:

إلى متي ننتظر هذه الحية؟ ألا نقتلها ونحفر هذا الكنز فنأخذه؟ فنهاه أخوه، وقال له:

لعلها تؤذيك ولا تدرك المال، لكنه أبى وصمم على ما نوى، وحمل فأسا ورصد الحية حتى خرجت فضربها ضربة جرحت رأسها ولم تقتلها، فثارت الحية فقتلته ورجعت إلى جحرها، فقام أخوه ودفنه وأقام حتى إذا كان من الغد خرجت الحية وقد عصبت رأسها من أثر الإصابة وليس معها شيء فقال لها:

يا هذه إني والله ما رضيت ما أصابك ولقد نهيت أخي عن ذلك فهل لك أن نجعل الله بيننا ألا تضريني ولا أضرك وترجعين إلى ما كنت عليه. فقالت الحية:

لا. قال:

ولم ذلك؟ قالت:

إني أعلم أن نفسك لا تطيب لي أبدا وأنت ترى قبر أخيك، ونفسي لا تطيب أبدًا، وأنا أذكر هذه الشجة في رأسي.



المتنبي وبائع البطيخ

قيل للمتنبي:

قد شاع عنك البخل بين الناس، وصار مادة لحديثهم، فكيف يكون ذلك، وأنت تشيد بالكرم وتمدح الكرام، والأجواد وتضعهم في المحل الأرفع بين الرجال، ومدحك للكرام دعوة للكرم فكيف تدعو للكرم ويشاع عنك البخل، فالبخل قبيح، وأقبح ما يكون إذا كان منك لأنك تظهر بين الناس بمظهر الماجد النبيل كبير النفس عالي الهمة، فقال المتنبي:

إن للبخل سببا، وذلك أني وردت في صباي من الكوفة إلى بغداد، وشاهدت صاحب دكان يبيع الفاكهة، ورأيت عنده خمسة من البطيخ باكورة فاستحسنتها، ونويت أن أشتريها بالدراهم التي كانت معي وقدرها خمسة، فتقدمت إليه وقلت:

بكم تبيع هذه الخمسة بطاطيخ؟

فقال البائع بغير اكتراث: اذهب فليس هذا من أكلك.

فتماسكت وقلت:

يا هذا دع ما يغيظ واقصد الثمن.

قال: ثمنها عشرة دراهم.

فلشدة ما صدمني به لم أستطع أن أساومه ووقفت حائرا، ودفعت له ما معي فلم يقبل وإذا بشيخ من التجار قد خرج من حانوته ومر بصاحب البطيخ فوثب إليه ودعا له، وقال:

يا مولاي هذا بطيخ باكورة، اسمح لي أن أحمله إلي بيتك فقال الرجل:

ويحك بكم هذا؟ قال:

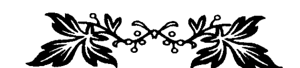
بخمسة دراهم. قال:

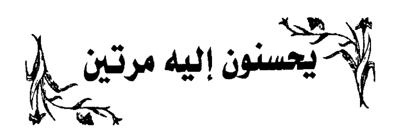
بل بدرهمين، فباعه الخمسة بدرهمين، وحملها إلى داره ودعا له وعاد إلى دكانه سعيدًا بما فعل.

فقلت: يا هذا ما رأيت أعجب من فعلك، رفضت أن تبيعني البطيخ بخمسة دراهم، وبعته للرجل بدرهمين محمولا. فقال:

هذا الرجل يملك مائة ألف دينار.

فعلمت أن الناس لا يكرمون أحدًا إكرامهم من يعتقدون أنه يملك مائة ألف دينار، وسأظل على حالي وعلى ما ذكرت حتى أسمع الناس يقولون إن أبا الطيب قد ملك مائة ألف دينار.





يحسنون إليه مرتين

فاطمة بنت الخرشب اشتهرت بأنها من منجبات العرب؛ لأن أبناءها تميزن بالنجابة ورفعة المنزلة، كانت في خبائها عصر يوم فحضر إلى خبائها عابر سبيل ونادى:

يا أهل الخباء. فقامت بالترحيب به بأن أجلسته على باب الخباء ثم طرحت عليه شملة (عباءة من خز) للتعبير عن إكرامها له، وناولته تمرا ولبنا ودخلت تعد له العشاء.

وجلس الرجل يفكر أنها وحدها، فبيت في نفسه أمرا فلما أظلمت الدنيا، قام من مجلسه ودخل الخباء، واقترب منها فصاحت به زاجرة إياه، فعاد إلى مجلسه، لكنه بعد مدة ذهب إليها ثانية، وقال لها:

لقد أردتك يا جارية ولن تندمي، فقالت له:

الزم حدك يا هذا وإلا نالك ما تكره:

وخرج الرجل لكن ليعود الثالثة مندفعا نحوها ممسكا بها، وفجأة انقضت عليه بحديدة كانت في يدها تقلب بها النار كي تعد له عشاءه، فسقط على الأرض فقامت من فورها وقيدته ثم صاحت:

يا قيس.. يا قيس:

فدخل ابنها الخباء ففوجئ برجل غريب طرح على الأرض وهو مقيد، فسألها: ماذا بك يا أماه؟ فقالت:

هذا الرجل أرادني عن نفسي، فما ترى فيه؟ قال:

سلي أنسا إنه أخي الأكبر فنادت فاطمة: يا أنس يا أنس.

وجاء أنس فرأى الرجل مقيدًا طريح الأرض فسأل:

ما هذا؟ قالت أمه:

إنه أرادني عن نفسي فماذا ترى فيه؟ فقال:

سلي أخي عمارة إنه الأكبر، فنادت أمه:

يا عمارة... يا عمارة. وجاء عمارة وسألته أمه عما يشاهده، فقالت:

إن هذا أرادني عن نفسي فانظر ماذا ترى، فاستل عمارة سيفه كي يقتل الرجل، فاعترضته فاطمة، وهي تقول:

لو دعونا أخاك ربيعا فهو أكبر منك؟ ونادت:

يا ربيع ... يا ربيع، وجاء ربيع مسرعا واستوضح الأمر فقالت أمه:

أترى هذا النكد يا بني، لقد أتانا ضيفا فاستضفته فإذا به يراودني عن نفسي، وأخوك عمارة يريد قتله.

قال الربيع: لا تزنوا أمكم (لا تجعلوها في موقف المتهم بالزنا) ولا تقتلوا ضيفكم وخلوه يذهب.

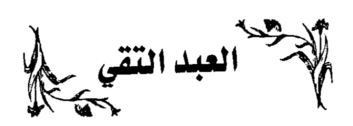
واستحسنت فاطمة رأي الربيع واستحسنه إخوته، ونظر الربيع إلى الرجل وقال:

ألم تسمع عنا يا هذا، قول الشاعر فينا نحن بنو هذه التي راودتها عن نفسها:

بنـــو جنيـــة ولـــدت ســـيوفا قواطـــع كلـــهم ذكـــر صـــنيع

وفكوا قيده، فخرج منكس الرأس قد كلله العار أما أولاد فاطمة فقد أحسنوا إليه مرتين مرة حين استضافته أمهم ومرة حين عفوا عنه.





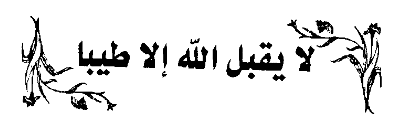
العبد التقي

خرج الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في سفر مع جماعة من أصحابه وبينما هم يسيرون في الصحراء، اشتد الحر، وارتفعت الحرارة فجلسوا يستريحون، ويتناولون غداءهم، فلمحوا رجلا يرعى غنما فحادثوه، فعرفوا أنه عبد يرعى غنم سيده، ولما حان وقت الطعام دعوه إليه، فاعتذر، فلما ألحوا في الدعوة، أجابهم بأنه صائم فبادره عبد الله بقوله: اليوم حره شديد، أفطره وصم بدلا عنه يوما آخر، فقال الرجل: وهل تضمن لي يا سيدي أن أعيش غدا فقال عبد الله: لكن اليوم حره شديد وصومه مرهق، وعطشه مؤلم ورد عليه العبد: أتحمل حر اليوم من أجل يوم يشتد حرارته ويطول وقته.

وأراد عبد الله بن مسعود أن يمتحن العبد، فطلب منه شاة يذبحها ويدفع ثمنها ويعطيه من لحمها ليعد فطوره، فقال العبد لا أملك الغنم يا سيدي حتى أتصرف في واحدة منها، فقال عبد الله: لكن صاحب الغنم ليس بحاضر، ولا يراك، وتستطيع أن تقول: إنها فقدت!

فقال العبد: صاحب الغنم ليس حاضرا ولا يراني، ولكن ماذا أقول للحاضر الذي يراني؟ ماذا أقول لله يوم أن أسأل؟

فشكر عبد الله للرجل أمانته، وحين عاد إلى المدينة بعد سفره سأل عن صاحب العبد ومالك الغنم، ولقيه فاشترى منه العبد، واشترى الغنم، ثم ذهب إلى العبد فأعتقه ثم منحه الغنم ليكون صاحبها، تقديرا لتقواه وإكبارا لأمانته.



لا يقبل الله إلا طيبا

يقول الجاحظ:

كنت أمر ذات يوم بأسواق بغداد عندما تعرفت على شخص يدل مظهره على ورع وتقوى، وسرنا سويا نتجاذب أطراف الحديث حتى مررنا أمام بائع رمان، فمد يده خلسة وسرق رمانة كبيرة، ودسها في كمه، فتعجبت واستغربت لصدور تلك الفعلة من ذلك الرجل الوقور، وأخذت أفكر حتى كذبت عيني، واتهمت الشيطان بأنه أوهمني بحدوث السرقة من هذا الرجل العاقل الوقور.

ولكن ما أن مررنا أمام فقير متسول، حتى أخرج الرجل الرمانة التي سرقها وأعطاها لذلك الفقير المتسول، فزاد اندهاشي وإذا بالرجل يقول لي:

يا هذا لا تعجب مما فعلت، إني لما سرقت الرمانة كتبت علي سيئة واحدة، ولما تصدقت بها كتبت لي عشر حسنات.

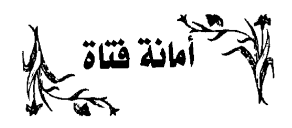
ولكني بادرته معترفا، وأسرفت أقول:

لا لا يا هذا ألا تعلم أنك لما سرقت كتبت عليك سيئة ولما تصدقت بها لم تقبل منك، وتساءل الرجل في دهشة وقال:

ولماذا لم تقبل؟ وأجبت في ثقة وصدق:

لأن الله طيب لا يقبل إلا طيبا.

ومضيت في طريقي وحدي مبتعدًا عن ذلك الذي خدعتني مظاهر ورعه وعلمه.



أمانة فتاة

كان من عادة الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يخرج في الليل، ويسير بين المسلمين ليتعرف أحوالهم ويشرف على شئونهم، وذات يوم شاهد امرأة تبيع اللبن ومعها ابنتها، وسمع الأم تقول لابنتها:

ألا تخلطين اللبن بالماء، فردت البنت قائلة: كيف أخلط اللبن بالماء وقد نهى أمير المؤمنين عن ذلك، فقالت الأم: إن عمر لا يرانا، فقالت الفتاه: إذا كان عمر لا يرانا فإن الله يرانا يا أماه، حينئذ تقدم عمر، وقال، وعمر أيضا يا ابنتي يراك ويسمع قولك، وشكر لها أمانتها، ونصح بائعة اللبن بأن تتقي الله ولا تغشن المسلمين.

وبعد أيام خرج عمر كعادته يتفقد شئون المسلمين فرأى بائعة اللبن فسألها عمر: هل وضعت على اللبن ماء؟ فأقسمت المرأة أنها لم تفعل، وفي هذه اللحظة جاءت الفتاة وسمعت مقالة أمها، فقالت لها: أتغشين المسلمين، وتحنثين في اليمين، وتكذبين على أمير المؤمنين فعرف عمر الفتاة، ورجع إلى بيته ثم جمع أولاده، وقال لهم من يتزوج الفتاة بائعة اللبن، وحكى لهم ما كان من أمرها فتقدم أحد أبنائه طالبا أن يتزوجها، وقد أنجبت هذه الفتاة بعد زواجها فتاة تزوجها عبد العزيز بن مروان وأنجبت منه الخليفة العادل الراشد عمر بن عبد العزيز الذي ملأ الدنيا عدلا وأمانة وخيرًا.





عمرو يهزم الروم قبل المعركة

كان عمرو بن العاص من دهاة العرب المعروفين، ومن أذكيائهم المشهورين، وقد أصبح من كبار القواد المسلمين، وحقق انتصارات عظيمة على أعدائهم بذكائه ودهائه.

وكان عمرو لا يعتمد في الحرب على شجاعته فحسب، وإنما كان يستعين بذكائه في وضع الخطط التي توفر له القوة والغلبة على عدوه، وتحقق لجيشه الانتصار.

وبينما كان يقود جيش الفتح الإسلامي في فلسطين التي كان يحتلها الرومان، أرسل له خصمه قائد جيش الرومان في غزة رسولا يطلب منه أن يرسل له جنديا عربيا من جنوده ليتكلم معه، وكانت هذه عادة من عادات الجيوش في هذه الأزمان حيث كانت الحروب من وسائل الاتصال بين الأمم والاحتكاك بين الحضارات والتعارف بين الشعوب وفكر عمرو في أن يستغل هذا الموقف لصالحه، وراح يستعرض رجاله عله يهتدي إلى جندي له ذكاء وفيه جرأة وعنده حيلة ودهاء فيؤثر فيهم ويخيفهم، ولا يدعهم يعرفون شيئا من أسرار جيشه، وراح يستعرض بذهنه رجاله فوجد عددا كبيرا من رجاله قادرين على أداء هذه المهمة.

وفجأة لاحت له فكرة، وحين هدأ المعسكر خرج من خيمته متخفيا وظل يسير حتى وصل معسكر الأعداء فاقتحم المعسكر بلا مبالاة، وسار بين الأعداء في اعتداد وشموخ، فأقبل عليه جنود الروم يسألونه شأنه، فأخبرهم أنه رسول عمرو بن العاص إلى قائدهم، فأحاطوا به من كل ناحية وساروا به حتى وصلوا إلى قائد الروم.

وفي خيمة القائد جلس عمرو بلا مبالاة أو رهبة، يسأله القائد فيجيب في هدوء ويتكلم في ثقة، سأله القائد ماذا تبغون من حربكم؟ قال نشر الإسلام وإحقاق الحق وإبطال الباطل، فسأله لكن أنتم قلة، ولن تهزموا الروم، فقال لكن معنا وعد أكيد من ربنا بالنصر، نؤمن به مثلما نؤمن بأن الليل يأتي بعد النهار، وأن الشمس حتما تشرق في الغد، فالله عز وجل يقول: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]، ونحن ننصر الله، فالله لا بد ناصرنا، لأن الله لا يقول إلا صدقا.

فقال القائد الروماني:

لكن قوة الروم كبيرة ألا تخشى الموت، قال ليتني ألقاه ليتني ألقاه، فابتدره القائد الروماني قائلا: ما هذا الذي تتشوق إلى لقياه؟ فرد عمرو على الفور: الموت.. الموت أجل.. أتدري ما أعز أمنية يتمناها أولئك الذين من خلفي، إنه الموت يا عزيزي القائد نحن نسعى إليه قدر سعينا من أجل النصر، ونحرص عليه قدر حرصكم على الحياة.

بالموت يفتح لنا باب الجنة التي وعد الله المجاهدين.

سأله القائد: أهذه أمنيتك أنت، فرد عمرو: لا يا عزيزي إنها أمنية الألوف من خلفي، نحرص على الموت حرصنا على النصر.

فسأله القائد: ولماذا أرسلك عمرو دون غيرك من الجنود؟

فرد عمرو على الفور قائلا: يظن عمرو أنني أقل الجنود عزما وأضعفهم قوة، وهيئ له أن من يأتي إليك فربما لا يرجع، فأرسلني وهو يظن أنه خسرني، ولن أعود، وتطلع القائد إلى من حوله من القواد فرأى على وجوههم خوفا، وفي عيونهم قلقا، فآثر ألا يتحدث مع الجندي العربي حتى لا يزداد خوفهم،ويشتد قلقهم.

وبعد أيام قامت المعركة بين الجيشين، فانهزم جيش الروم بعد وقت

قليل من بدء القتال، وتفرق الجنود وقبض على القائد، وأدخل خيمة عمرو بن العاص، وكانت مفاجأة أن رأى الجندي الذي كان في خيمته منذ أيام هو نفسه عمرو بن العاص.

فقال: والله يا عمرو إنك لم تهزمنا اليوم، وإنما هزمتنا منذ أن جئت إلينا وحدك في معسكرنا، فحينئذ بدأت المعركة، حيث هزمت النفوس والقلوب، واليوم حطمت السلاح وفرقت الرجال، وإن الهزيمة تبدأ في النفس قبل أن تكون في ميدان المعارك.

وهكذا استطاع عمرو بجرأة قلبه، وذكاء فكره، وحسن سياسته أن يحقق النصر على الأعداء.



مروءة قاتل

في مدينة القيروان أضجع أحد الجزارين كبشا ليذبحه، فتخبط بين يديه، وأفلت منه وذهب، فقام الجزار يطلبه وجعل يمشي إلى أن دخل خرابة فإذا فيها رجل مذبوح يتخبط دمه، ففزع وخرج هاربا، وإذا بالشرطة عندهم خبر القتل، وجعلوا يطلبون خبرا القاتل والمقتول، فأصابوا بيده السكين وهو ملوث بالدم، والرجل مقتول بالخربة، فقبضوا عليه وحملوه إلى السلطان، فقال:

أنت قتلت الرجل؟ قال:

نعم، فما زالوا يستنطقونه، وهو يعترف اعترافا لا إشكال فيه، فأمر السلطان بقتله، واجتمع الناس ليروا مصير الجزار، فلما هموا بقتله اندفع رجل من المجتمعين، وقال:

لا تقتلوه أنا القاتل، فقبض عليه وحمل إلى السلطان فاعترف، وقال: أنا قتلته. فقال له السلطان:

كنت معافى من هذا فما حملك على الاعتراف؟

قال: رأيت هذا الرجل يقتل ظلما، فكرهت أن ألقى الله تعالى بدم رجلين فأمر به السلطان فقتل ثم قال للمتهم:

أيها الرجل: ما دعاك إلى الاعتراف بالقتل وأنت بريء؟

فقال الجزار: ما حيلتي رجل مقتول بالخربة، وأخذوني وأنا خارج منها وبيدي السكين ملطخة بالدم، فإن أنكرت فمن يقيلني، وإن اعتذرت فمن يعذرني؟

فخلى سبيله وانصرف مكرما.



كل يزول

استدعى الملك وزيره ذات يوم وقدم له خاتما أهداه إليه تاجر الجواهر، وقال:

أريد أن تأخذ معك هذا الخاتم كي تعيده بعد أسبوع، وقد كتبت عليه كلمتين لا تزيدان يقرأهما الحزين فيفرح ويقرأهما الفرحان فيحزن، وإذا لم تأت بهاتين الكلمتين مكتوبتين في موعدك تكون قد حكمت على نفسك بالموت.

ذهل الوزير مما يسمع وطار عقله واسودت الدنيا في عينيه وضاعت الكلمات من فوق شفتيه لكنه تمالك وقال:

تقتلني يا مولاي؟ قال الملك:

نعم. قال الوزير:

ماذا جنيت يا مولاي، أنا عملي أساعدك في تدبير المملكة وليس كاتبا على خواتم؟ هذا ليس في مقدوري، قال الملك:

ما دمت وزيرا فلا بد وأن تحسن كل شيء.

قال الوزير: بعد خدمتي في الوزارة السنين الطوال تحكم علي بالموت؟

قال الملك:

يعني المفروض أن تترك الوزارة بعد هذه السنين لغيرك.

قال الوزير:

ولم لا أترك الوزارة حيا هل من يتركها لا بد أن يموت؟

قال الملك: أنت لن تتركها بل تقتل وأنت وزير، وسيعرف الناس

السبب هو أنك لم تنفذ ما طلبت منك هذا خير من أن يقال عني أنني أطرد الوزراء بلا سبب.

قال الوزير: يا مولاي اترك لي حياتي، وأترك لك وزارتك فليس هناك من داع أن أموت وأترك ابنتي الشابة يتيمة وزوجتي بلا عائل.

قال الملك: كلام الملوك لا يرد.

استأذن الوزير وخرج إلى بيته مهموما وحاول خلال المدى الذي حدده له الملك أن يستعين بأصدقائه من الكتاب والأدباء كي يجدوا له مخرجا لكن لم يستطع أحد منهم تحقيق ذلك.

ولم يشأ الوزير أن تحزن أسرته خلال الأسبوع الباقي له في الدنيا فكان يبدو عاديا لكنه في الليلة الأخيرة جلس مع زوجته وابنته وروى لهما مصيبته ومصيبتهم، فقالت له ابنته:

هات الخاتم سأستعين بالله كي أجد حلا.

وفي الصباح قالت له: إليك الخاتم لقد أنقذك الله بفضله وذهب الوزير بالخاتم إلى الملك، وقدمه له، فأشرق وجهه وبدا عليه المرح، ثم قطب الجبين حزينا وتملكه الفزع والرعب وصار يتملكه الفرح حينا والترح وقتا.

ثم قال للوزير:

لقد أحسنت صنعا فهذا الخاتم الآن يمكن أن يلبسه كل ذي سلطة وجاه، ويلبسه أيضا كل حزين يتملكه الغم وتحيط به دواعي اليأس.

ثم نظر ما كتب عليه، وقال:

حقا: «كلٌّ يزول».





نهاية ظالم

عاش الثعلب «ظالم» في جحره سعيدًا به، وخرج ذات يوم يبحث عن طعام يأكله، ثم عاد فوجد حية قد سكنته، ولم يحاول ظالم أن يسكن معها ؛ لأنه لا يستطيع ذلك،ولم ينتظر أن تترك العش ؛ لأنها قد اختارته، وهو يعلم أن الحية لا تعد لنفسها جحرها، وإنما تغتصب مساكن الحيوانات الأخرى ولذلك يضرب المثل بظلمها فيقولون: أظلم من حية.

وقف الثعلب ظالم يفكر، فوجد أنه من السلامة له أن يرحل، وأن يبحث عن مأوى آخر، وليس من العقل أن يصارع الحية.

وسار الثعلب، وامتد به السير، حتى رأى جحرا تميز بحسن منظره، وطيب موطنه، وهو إلى ذلك حصين متين، إذ هو في أرض منيعة ذات أشجار ملتفة فأعجبه الجحر، وسأل عنه فقالوا له: إن الجحر يملكه ثعلب اسمه (مغوض) وأنه ورثه عن أبيه فناداه ظالم، فخرج إليه، ورحب به، وأدخله إلى جحره، وسأله عن حاله، فقص عليه قصته مع الحية، فرق له مغوض وقال له: يدي في يدك حتى نثأر من الحية، والموت في طلب الثأر أفضل من الحياة مع العار، ولا تستبدل موطنك بموطن آخر.

وإنما يجب أن تتمسك به، وتصر عليه.

وانطلق مغوض مع ظالم وذهبا إلى الجحر المغتصب، وأخذ مغوض يتأمل الجحر، ويفكر في حيلة، يستطيع بها أن يحرر العش من مغتصبه، ثم قال لظالم: الرأي عندي أن ننطلق فيحتطب كلانا حزمة من حطب ثم نحمل الحطب إلى باب جحرك ونضرم فيه النار، فإن خرجت الحية احترقت، وإن لزمت الجحر قتلها الدخان، وذهب كلاهما يحتطب فجمعا

حزمتين، ولما جاء الليل انطلق الثعلب مغوض إلى خيام قريبة ليحضر منها قبسا من نار، وترك ظالم عند الحزمتين.

وبينما مغوض يتربص عند الخيام، منتهزا فرصة يأخذ فيها قبس النار، كان ظالم يفكر في حيلة خبيثة ذلك أنه أعجبه عش مغوض لموقعه الحصين، ولقربه من الماء.

ولأن الأشجار تحوطه وتظلله، وهو إلى ذلك فيه طعام كثير ادخره مغوض، فطمع ظالم في العش سكنا له، وطمع في الطعام زادا لنفسه فعمد إلى إحدى الحزمتين فأخفاها، ثم حمل الثانية وذهب إلى عش مغوض ودخل العش، ثم بالحزمة سد بابه، وقال لنفسه سيأتي مغوض فيجد باب العش مسدودا فينصرف عنه إلى عش آخر، وسأمكث أنا في العش أياما لا أخرج وآكل مما ادخره مغوض وهو كثير لا ينفد إلا بعد أيام، يكون خلالها مغوض قد يئس من الدخول فينصرف باحثا له عن عش آخر وبذلك يستولي على عش جميل حصين بلا قتال.

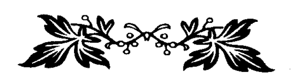
وجاء مغوض بعد أن جاء بقبس النار فلم يجد الثعلب ظالمًا فظنه حمل الحزمتين معا حتى لا يتعبه، وذهب ينتظره عند عشه فاتجه إليه، لكنه لم يجد ظالما ولم يجد الحطب، ولبث ينتظر هناك، حتى أقبل الليل، فقرر أن يعود إلى جحره.

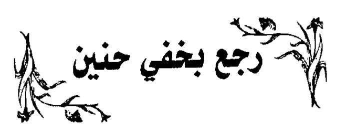
ولما عاد مغوض حاول أن يدخل فلم يستطع، ذلك أنه وجد الباب مسدودا بحطب كثير، فأضرم مغوض النار في الحطب فاشتعل نارا وذلك حتى ينفتح له الباب ويدخل عشه.

ولما هدأت النار وانطفأت دخل مغوض الجحر ففاجأه أن رأى جثة ظالم فتألم لمصرعه، وجلس يفكر حزينا في مصيره.

لكن مغوض عرف أن ظالم هو الذي سد الباب كي يسلبه العش وجلس مغوض يفكر فيما كان من أمر ظالم، فعرف أنه جبان لم يدافع عن عشه، وغادر أساء لمن وقف معه في الشدة، وطماع مستحل وطن غيره، فابتسم مغوض وهو يقول:

ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله.





رجع بخفي حنين

كان يسكن الحيرة رجل اسمه حنين، وكان يعمل إسكافيا، (صناعة بيع الأحذية)، وذات يوم جاءه أعرابي يشتري خفين وساومه مساومة ثقيلة، يمسك هذا الخف ويتأمله ثم يتركه ليمسك آخر، ويلبسه ثم يدعه إلى ثالث فيجربه، وهكذا، ويسأل عن ثمن هذا، ثم يسأل عن ثمن غيره وجمع من المشترين يحاولون أن يجدوا فرصة في الدكان ليشتروا، ولكنهم لا يستطيعون، ذلك أن الرجل إذا أعجبه خف أو حذاء فأمسكه، يسارع الأعرابي فيخطفه من يد الرجل ويقول هذا الذي أبحث عنه، فيتركه الرجل إلى غيره، لكن سرعان ما يدركه الأعرابي ويقول: هذا ما أبحث عنه، والتاجر «حنين» كلما سأله مشتر عن حذاء سرعان ما يشغله الأعرابي عن عمله فينصرف المشتري، وكان حنين قد أجاد ترتيب دكانه وتجهيزه فصنف الأحذية، وأحسن وضع كل نوع في مكانه، من أجل أن يسهل عليه العمل، ومن أجل أن تبدو البضاعة حسنة في أعين المارة، فيقبلون على الشراء، لكن هذا الأعرابي لكثرة ما أخذ هذا، وترك ذاك، ولطول ما تنقل في الدكان وتحرك فإن الفوضى قد انتشرت، والنظام قد اختفى، والمشترين قد أجلوا الشراء، وحنين مع الأعرابي يلاطفه ويصطبر عليه، وبعد وقت طال انسحب الأعرابي دون أن يشتري واغتاظ حنين اغتياظا شديدًا فدبر في نفسه أمرا.

كان الأعرابي قد أعجب بخفين في الدكان، فأخذهما حنين وخرج إلى الطريق الذي يسير فيه الأعرابي عائدا إلى بلده وعلق فردة في شجرة على الطريق، وبعد مسافات وضع في طريقه الفردة الثانية، ثم اختفى في



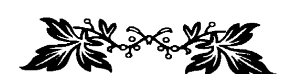
مكان قريب.

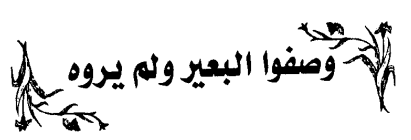
وجاء الأعرابي العائد إلى بلده، فرأى أحد الخفين على الشجرة، فتوقف وتأمله ثم قال حقا ما أشبهه بخف حنين، لكن آه... لو كان معه آخر لأخذت الاثنين، ومد يده ليأخذه لكن قال في نفسه ما يجدي لو أخذت فردة واحدة، لن أستفيد بها شيئا، فانصرف عنه، ومضى في طريقه.

وفجأة رأى الخف الآخر مطروحا في الطريق فنزل عن بعيره وربطه، وتقدم إلى الخف وفي قلبه فرح، وفي عينه سعادة، لقد تحققت الأمنية، وهذان هما الخفان، واحد رآه منذ قليل على الشجرة، ولم يأخذه لأنه لا يصلح وحده، وهذا هو الثاني، وأخذ الخف الملقى في الطريق وسار إلى الشجرة حيث أخذ الفردة الثانية، ولبس الخفين سعيدا بهما.

وفي اللحظة التي كاد فيها الأعرابي يمد يده ليأخذ الخف ويلبسه سعيدًا كان حنين يركب بعيره ويقوده مسرعا نحو الحيرة، وعاد الأعرابي ليركب البعير فلم يجده، وبحث عنه متلفتا حوله لكن دون فائدة.

ولما يئس من البحث عاد إلى أهله حزينا دون البعير لكنه رجع بخفي حنين فصارت مثلا فيقول الناس: «رجع بخفي حنين».





وصفوا البعير ولم يروه

نزار بن معد، كان له أربعة أبناء على سفر، هم مضر وربيعة وإياد وأنمار، كانوا متجهين إلى أرض نجران في جنوب الجزيرة العربية، وبينما يسيرون رأوا كلأ به آثار رعي فتأمل مضر الكلأ المرعي ثم قال: إن البعير الذي رعى هذا الكلأ أعور.

فقال ربيعة: وهو أزور.

وقال إياد: وهو أبتر.

وقال أنمار: وهو شرود.

وبعد أن ساروا قليلا، لقيهم رجل على راحلة، فتقدم إليهم وسألهم عن بعير له قد فقده.

فقال مضر: أهو أعور؟ قال: نعم.

وقال ربيعة: أهو أزور؟ قال: نعم.

وقال إياد: أهو أبتر؟ قال: نعم.

وقال أنمار: أهو شرود، قال: نعم، والله هذه صفات بعيري، دلوني عليه لكنهم أقسموا للرجل أنهم ما رأوه، لكن الرجل لم يصدق الأربعة بعد أن وصفوا بعيره، فلزمهم في سفرهم، وهو يقول لهم: كيف أصدقكم وأنتم تصفون بعيري بصفته، وساروا، وسار الرجل معهم حتى قربوا نجران، وكان هناك أحد مشايخ القبائل واسمه الأفعى الجرهمي، له رأي وفيه حكمة، فناداه صاحب البعير مستغيثا به: هؤلاء القوم وصفوا بعيري بصفته لكنهم أنكروه ورفضوا أن يدلوني عليه، فقال الجرهمي: كيف وصفتموه ولم تروه؟

قال مضر: رأيته يرعى جانبا ويترك جانبا فعلمت أنه أعور.

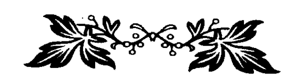
وقال ربيعة: رأيت آثار أقدامه الأمامية فوجدت إحدى قدميه ثابتة الأثر والأخرى فاسدة الأثر فعلمت أنه أفسدها لمرض قدمه فقلت: إنه أعرج.

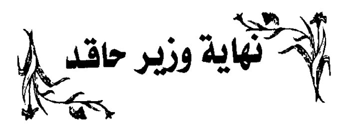
وقال إياد: عرفت بتره باجتماع بعره ولو كان له ذيل لتفرق.

وقال أنمار: عرفت أنه شرود لأنه كان يرعى في مكان طيب نبته، ثم يتركه إلى مكان نبته خبيث.

فقال الأفعى الجرهمي: هؤلاء ليسوا أصحاب بعيرك، وصدقوا فقد وصفوه ولم يروه فاطلبه عند غيرهم.

ثم سألهم من هم؟ فأخبروه، فرحب بهم وبالغ في إكرامهم.





نهاية وزير حاقد

من حكام العرب المشهورين الخليفة العباسي المعتصم، دخل عليه رجل من العرب ذات يوم، وكان الرجل ذا خبرة بأيام العرب وأخبارها، وكان حلو الرواية إذا روى، عذب الحديث إذا تحدث، يملأ الجو مرحا بنوادره ويشيع في المجلس أنسا بطرائفه.

وكان دائما يتحدث بالحديث الشيق ويتكلم بالغريب النادر، فأقبل الخليفة على حديثه، وسر من مجلسه، وأدناه منه، وقربه إليه، وكان يهش له إذا حضر ويفتقده إذا غاب، وصار هذا القادم الجديد على مجلس الخليفة العظيم محل النظر، وموضع العناية، وأهل التقدير والرعاية وأكبره الناس لما شاهدوا من إكبار الخليفة له، ولما آنسهم به من سمره العذب وحديثه الشيق.

وكان للخليفة وزير اشتهر بالخبث والاحتيال، وكان ذا نفس حاقدة، لا يطمئن إذا رأى الخليفة منح رجلا ثقته، وقربه من محضره ذلك ؛ لأنه كان يتصوره منافسا له في مركزه، فكان يكره كل من رضي عنه الخليفة وآثره بحبه، وحباه بقربه.

وكان يكيد له عند الخليفة في خبث ودهاء حتى يتمكن من الإيقاع بينه وبين الخليفة، فيبعده عنه، وإذا أمكن أن يلفق له أمرا أو يدبر له شرا، فيعاقب بلا ذنب، كان يفعل حتى يتأكد أن مجلس الخليفة لن يكون فيه نظير له أو منافسا ينافسه في منصبه الذي كان يحرص عليه كحرصه على الحياة ولقد تألم الوزير كثيرًا لما رأى الخليفة يقرب هذا العربي القادم على مجلسه وخشي أن يأمر الخليفة بعزله ليفسح المجال

فيصير وزيرا من بعده.

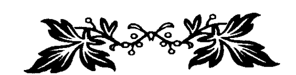
لذلك رأى أنه من الحكمة أن يبعده عن طريقه بأن يوقع بينه وبين الخليفة، فلربما إذا غضب عليه الخليفة أن يبعده عن مجلسه، وربما أمر بقتله، ومن أجل أن يحقق هدفه احتال على الرجل حتى صادقه، ثم دعاه إلى منزله وقدم له طعاما أكثر فيه من الثوم، فلما أكل الرجل قال له الوزير: هيا بنا إلى مجلس الخليفة، وفي الطريق حذره أن يقترب من الخليفة اليوم، وذلك ؛ لأنه يكره رائحة الثوم، ولأن الرجل تتصاعد من فمه رائحة الثوم قوية، ثم ذهب الوزير إلى الخليفة فاختلا به، وقال: يا أمير المؤمنين هذا الرجل الذي فتحت له قلبك ومنحته ثقتك وبرك يشيع عنك أن رائحة فمك كريهة وتنبعث منها ما يؤلم ويؤذي، وأنه يقاسي من قربك، ويود لو يرحل، وأنه يكلم الناس بذلك، لكنهم لا يجرأ أحد منهم أن ينقل إليك حديثه، لما رأى الناس من اهتمامك به، وعلو منزلته عندك.

ولما دخل الرجل على الخليفة، جعل كمه في فمه، مخافة أن يشم الخليفة رائحة الثوم، فلما رأى الخليفة الرجل واضعا كمه على فمه صدق ما نقله وزيره، واعتقد أن الرجل يخادعه، فيظهر له الود ويشيع عنه أخبث الحديث، فرأى الخليفة أن يقتله، لكن فكر في أن تكون العقوبة بطريقة تتفق مع ما ظنه فيه من خداع، لذلك أقبل عليه وتودد إليه ووعده بمكافأة عظيمة، ثم كتب له كتابا إلى أحد حكامه، أمره أن يذهب إليه ويتسلم ما به من جائزة ثم يأتيه بالجواب.

ولأن الوزير لم يعرف ما نوى الخليفة أن يفعله في الرجل فلم يشاهد سوى الترحيب والتكريم، وسوى الوعد بالجائزة فتألم لفشل حيلته، وطمع في الجائزة، فأقبل على الرجل بعد خروجه وادعى أنه يعرف مقدار الجائزة؛ لأن الخليفة استشاره فيما فعل، وعرض عليه أن

يريحه من السفر، ويدفع له قيمة الجائزة، فقبل الرجل وأخذ منه ألفي دينار.

وذهب الوزير الحاسد يحمل كتاب الخليفة إلى حاكمه، وقد امتلأ قلبه حقدا على الرجل، وامتلأ طمعا لنيل الجائزة المرتقبة ووصل إليه فسلم عليه، وأعطاه الخطاب، فقرأه الحاكم ثم استدعى السياف، فقطع رقبته على الفور، وهكذا خسر الوزير ماله بسبب طمعه، وفقد حياته بسبب حقده.





معاوية يؤدب ولده يزيد

كان لعبد الله بن الزبير أرض تجاور أرضا لمعاوية بن أبي سفيان، وكان بها عبيد من الزنوج يعملون بها فدخلوا على أرض عبد الله، فاغتاظ وأرسل إلى معاوية:

أما بعد: يا معاوية فامنع عبدانك من الدخول في أرضي وإلا كان لي ولك شأن.

فلما قرأ معاوية الكتاب أعطاه لابنه يزيد فلما قرأه قال له:

يا بني.. ما ترى؟ قال:

يا أمير المؤمنين... أرى أن تبعث إليه جيشا، أوله عنده، وآخره عندك، يأتوك برأسه.

قال معاوية:

أو خير من ذلك يا بني؟ علي بدواة وقرطاس، وكتب:

وقفت على خطاب ابن حواري رسول الله ﷺ، وساءني ما ساءه، والدنيا بأسرها هينة في جنب رضاه، وقد كتبت له على نفسي صكا بالأرض والعبدان وأشهدت علي فيه، فليضفها مع عبداني إلى أرضه وعبدانه والسلام.

فلما وقف عبد الله بن الزبير على كتاب معاوية كتب إليه:

وقفت على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، فلا عدم الرأي الذي أحله من قريش هذا المحل والسلام.

فلما وقف معاوية على كتاب عبد الله أعطاه لابنه يزيد وقال له: يا بني إذا بليت بمثل هذا الداء فداوه بمثل هذا الدواء.



بعث أحمد بن طولون حاكم مصر إلى وزيره عبد الله بن القاسم يستدعيه للقائه بعد أن انتصف الليل، وصحبه الحاجب إلى بيت مظلم فدخله ثم قال:

سلم على الأمير، فسلم الوزير، فقال له ابن طولون بعد أن رد السلام وهو في الظلام:

لأي شيء يصلح هذا البيت؟ فقال:

للفكر، قال: ولم؟ قال:

لأنه ليس فيه شيء يشغل النظر، قال ابن طولون: أحسنت ثم قال له:

امض إلى ابني العباس فقل له: يقول لك الأمير تعال غدا وامنعه من أن يأكل شيئا من الطعام إلى أن يأتيني فيأكل معي، فقال الوزير:

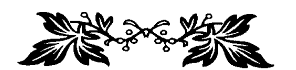
السمع والطاعة، وخرج الوزير ففعل ما أمره به ابن طولون، ومنعه من أن يأكل شيئا، وكان العباس قليل الصبر على الجوع، فأراد أن يأكل شيئا يسيرا قبل ذهابه إلى أبيه، فمنعه الوزير، وركب إليه حتى جلس بين يدي والده الذي أطال الجلوس عمدًا، حتى علم أن العباس قد اشتد جوعه.

وأحضرت المائدة ليس عليها إلا البوادر من البقول المطبوخة فانهمك العباس في أكلها لشدة جوعه حتى شبع من ذلك الطعام، وأبوه متوقف عن الانبساط في الأكل، فلما علم بأنه قد امتلأ من ذلك الطعام، أمرهم بنقل المائدة، وأحضر كل لون طيب من الدجاج، والبط والجدي

والخروف، فانبسط أبوه في جميع ذلك فأكل، وأقبل يضع بين يدي ابنه منه، فلا يمكنه الأكل لشبعه.

وهنا قال له أبوه:

إنني أردت تأديبك في يومك هذا بما امتحنتك به، فلا تلق بهمتك على صغار الأمور بأن تسهل على نفسك تناول يسيرها، فيمنعك ذلك من كبارها، ولا تشتغل بما يقل قدره، فلا يكون فيك فضل لما يعظم قدره.



الملك تبع
آمن برسول الله قبل بعثته

من مشاهير ملوك العرب ملك اسمه تبع، ملك في جنوب الجزيرة العربية، وكان كثير الوزراء، اختار أحدهم عماريا وخرج معه لينظر في شئون مملكته، وصحب معه كذلك من العلماء والحكماء مائة ألف رجل واتجه الملك تبع ومعه وزيره ومعه حكماؤه وعلماؤه وجيشه، اتجهوا ناحية الشمال، وكلما مر على مدينة أو قرية خرج أهلها يحسنون استقباله، ويقدمون له الخضوع والولاء، فلما وصل مكة لم يخرج أهلها خاضعين معظمين كسائر ما مر به من بلاد ومن عرب فغضب لذلك غضبا شديدا، ودعا الوزير (عماريا) وقال له: كيف شاهدت أهل هذه البلدة فإنهم لم يهابوني، ولم يخشوا جيشي، فقال: إنهم مخطئون، وعرف الملك وعرف الوزير أن لهم بيتا اسمه الكعبة يفخرون به ويتعبدون فيه، فنزل الملك بجيشه ببطحاء مكة وعزم على هدم البيت وقتل الرجال وسبي النساء، فأصابه صداع قوي، وتفجر ماء له رائحة كريهة من عينيه، ومن أذنيه، ومن منخريه ومن فمه، فقال لوزيره: اجمع العلماء، والحكماء والأطباء وتكلم معهم في أمري، واجتمعوا عند الملك، لكنهم لم يقدروا على الجلوس إلا ساعة، وعجزوا عن مداواته، وقالوا: نحن نقدر على علاج أمور الأرض أما هذا فإنه شيء من السماء لا نستطيع علاجه، ولا نقدر على رده، واشتد الأمر على الملك، ونفرت الناس منه، وذات ليلة استأذن أحد العلماء الوزير في لقاء الملك، فأذن له، ودخل على الملك، وقال له: يا مولاي إن صدقتني في حديثك كنت قادرا على علاجك، ثم قال له العالم



أيها الملك أنت نويت لهذا البيت سوءًا؟

قال: نعم نويت خرابه، وقتل رجاله، وسبي نسائه فقال العالم: يا مولاي هذه النية هي التي أحدثت هذا الداء، ورب هذا البيت قادرا يعلم الأسرار، فبادر وأخرج من قلبك ما هممت به من شر لهذا البيت وأهله ولك خير الدنيا والآخرة، قال الملك: قد أخرجت ذلك من قلبي، ونويت لهذا البيت المبارك ولأهله كل خير.

فما مضت إلا لحظات حتى برأ الملك من علته، وعافاه الله بقدرته، فآمن بالله من ساعته، وخلع على الكعبة سبعة أثواب، وهو أول من كسا الكعبة، وخرج متجها إلى الشمال، وعند بقعة فيها عين ماء نزل برجاله ومكث هناك بضعة أيام، وحان الرحيل، فعلم الملك بأمر غريب، ذلك أن أربعمائة من العلماء والحكماء، تشاوروا فيما بينهم، ثم صح عزمهم على ألا يغادروا المكان ولو تعرضوا لأسوأ العقاب، فأرسل إليهم الوزير عماريا يسألهم شأنهم، ثم عاد الوزير إلى الملك.

وقال: يا مولاي إن العلماء والحكماء يقولون إن هذا المكان يشرف برجل يبعث في آخر الزمان يقال له محمد، ونحن لنا أمل أن ندركه، أو تدركه أولادنا، واستدعى الملك ذلك العالم الحكيم الذي عالجه من مرضه، وناقشه وجادله، وطلب منه أن يرحل معه، فأصر العالم على موقفه، رجاء أن يدرك محمد عليه الصلاة والسلام، حينئذ أمر الملك تبع أن يبنى في هذا المكان أربعمائة بيت لكل عالم بيته، فنشأت يثرب وسكنها أولئك العلماء والحكماء أجداد الأنصار عليهم السلام.

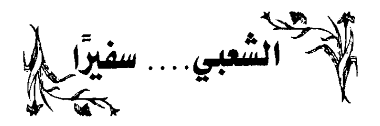
ثم كتب الملك كتابا ودفعه إلى هذا العالم الكبير، وأمره أن يدفع بالكتاب إلى النبي إن أدركه، وإلا فيوصي به أولاده من بعده حتى يتصل بالنبي ﷺ، ذلك الكتاب مكتوب فيه:

أما بعد:

فإني آمنت بك وبكتابك الذي أنزل عليك، وأنا على دينك وسنتك، آمنت بربك فإن أدركتك أعلنت إليك إسلامي، وإلا فاشفع لي ولا تنسني يوم القيامة فإني من أمتك الأولين، وقد بايعتك قبل مجيئك، وأنا على ملتك وملة أبيك إبراهيم عليه السلام.

ثم ختم الكتاب ونقش عليه: ﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ﴾ من تبع الأول الحميري إلى محمد بن عبد الله ونبي الله ورسوله وخاتم النبيين وظل هذا الكتاب عند أهل يثرب ألف عام حتى بعث النبي عليه الصلاة والسلام واستشار الأنصار عبد الرحمن بن عوف في إيصال الكتاب إلى النبي ﷺ فأشار أن يدفعوه إلى رجل ثقة منهم، فاختاروا رجلا اسمه أبو ليلى كان من الأنصار، ودفعوا إليه الكتاب وأوصوه بحفظه، وخرج الرجل من المدينة على طريق مكة فوجد النبي عليه الصلاة في قبيلة بني سليم فعرفه الرسول ﷺ، وقال له: **أنت أبو ليلى؟** قال: نعم، قال: **ومعك كتاب تبع الأول؟** قال: نعم فتعجب أبو ليلى، وظن أن في الأمر سحر، وقال للرسول ﷺ: من أنت فأنا لا أعرفك؟ فقال رسول الله ﷺ: **أنا محمد رسول الله، هات الكتاب**، فأخرجه، ودفعه إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقرأه عليه فلما سمع الرسول عليه السلام كلام تبع قال: **مرحبا بالأخ الصالح**، ثلاث مرات.

ولما هاجر الرسول عليه السلام إلى يثرب سأله أهل القبائل أن ينزل عليهم فكانوا يتعلقون بناقته، وهو يقول خلوا الناقة فإنها مأمورة حتى جاءت إلى دار ووقفت عندها، وكانت هذه الدار ملك لرجل من أولاد العالم الحكيم الذي عالج تبعا وأبرأه من علته،وكان هذا الرجل هو الصحابي أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه.



الشعبي.... سفيرًا

كان حكام الدولة الأموية في دمشق يستقبلون سفراء الدولة الرومانية كما كانوا كذلك يبعثون إليها بسفرائهم، وقد اختار عبد الملك بن مروان الشعبي سفيرًا له لديهم، لما آنس فيه من ذكاء، وما عهد فيه من فطنة، فلما مثل الشعبي عند إمبراطور الروم كان لا يسأله عن شيء إلا أحسن الجواب، ولم تكن الرسل تمكث طويلا عندهم، لكن الشعبي لم يسمحوا له بالعودة إلا بعد وقت طويل.

وأخيرا حان موعد سفره، فأعطاه الإمبراطور رسائله كي يحملها إلى الخليفة عبد الملك، ثم سأله: هل أنت من عائلة أمير المؤمنين فأجابه قائلا: لا، ولكن رجل من عامة العرب.

وحينئذ كتب إليه ورقة وطلب منه أن يعطيها للخليفة بعد أن يؤدي إليه الرسائل.

وتحرك ركب السفارة عائدًا إلى بلاد العرب قادما من بلاد الروم، وبعد أيام وصل الشعبي إلى دمشق ومثل أمام الخليفة عبد الملك فأحسن استقباله وهنأه بسلامة الوصول، ثم دفع الشعبي إلى عبد الملك ما معه من رسائل الإمبراطور واستأذن ليخرج، وعندما وصل إلى الباب تذكر الورقة الأخيرة التي كتبها الإمبراطور عند لقائه الأخير، قبل سفره فعاد إلى الخليفة وأعطاه إياها، فلما قرأها سأله الخليفة: هل قال لك شيئا قبل أن يدفعها إليك قال الشعبي: نعم سألني: هل أنت من أهل بيت المملكة؟ قلت: لا لكني رجل من عامة العرب.

وأطرق عبد الملك يفكر، ثم سأل الشعبي: هل تدري ما في هذه

الورقة؟ فرد عليه بالنفي، إذ إنه لم يكن قد قرأها، فدفعها إليه عبد الملك قائلا: اقرأ فقرأ الشعبي الورقة فإذا هو مكتوب فيها: عجبت من قوم فيهم مثل هذا كيف ملكوا غيره.

فبهت الشعبي لما في العبارة من إساءة للخليفة، وأوجس خيفة لما تحمله من تعريض به، وتفضيل للشعبي عليه، فتقدم الشعبي من الخليفة، وقال:

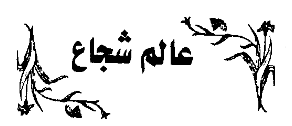
والله يا أمير المؤمنين لو علمت ما فيها ما حملتها، ثم تابع حديثه قائلا: وإن الإمبراطور قال مقالة ؛ لأنه لم يرك فابتسم الخليفة وطمأن الشعبي، وقال:

أتدري يا شعبي لم كتبها؟

قال الشعبي: لا يا أمير المؤمنين.

قال الخليفة: حسدني الخبيث عليك فأراد أن يغريني بقتلك.





هشام بن عبد الملك خليفة أموي، قدم إلى مكة حاجا بيت الله الحرام، من دمشق حيث كانت عاصمة الملك، فلما دخل الحرم اشتاق أن يرى نفرا من أولئك الذين عاشروا رسول الله ﷺ وصاحبوه، فقال ائتوني برجل من الصحابة، فقيل يا أمير المؤمنين قد انتقل جميعهم إلى رحاب الله.

قال: فأتوني برجل من التابعين.

فأتي بطاوس اليمني وكان عالما زاهدًا يعمل بعلمه، ويمتاز بالجرأة في قول الحق.

فلما دخل طاوس على الخليفة هشام خلع نعليه بحاشية بساطه، ولم يسلم بأمير المؤمنين، ولم يكنه فقال: يا هشام كيف أنت؟

وجلس إلى جانبه بغير إذنه.

فظهر الدهش على وجه الخليفة ووجوه الحاضرين ذلك أن الناس تعودوا أن يعاملوا الملوك معاملة تناسب جلال الملك، فكانوا يخلعون نعالهم في مكان بعيد قبل أن يقتربوا من مكان جلوسهم، ثم يسلمون عليه قائلين السلام عليك يا أمير المؤمنين، ثم لا يكلمه إلا بكنيته، حيث قد كان لكل واحد منهم اسم وكنية، كأن يقال لعمر بن الخطاب: الفاروق، أو لأبي بكر الصديق، ثم كانوا بعد ذلك لا يجلسون إلا بعد أن يأذن لهم الخليفة بالجلوس، فإذا جلسوا يجلسون في مكان منخفض لا يعلو إلى حيث يجلس الخليفة، ولا يقترب منه.

دهش الناس لما رأوا وشاهدوا، أما هشام فقد غضب غضبا شديدًا حتى هم بقتل طاوس، فقيل له: يا أمير المؤمنين، أنت في حرم الله وحرم

رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولا يجوز ذلك.

فقال: يا طاوس ما حملك على ما صنعت؟ قال: وما صنعت؟ قال: خلعت نعليك بحاشية بساطي، ولم تسلم علي بـ "يا أمير المؤمنين"، ولم تكنني، وجلست بالقرب مني بغير إذني، وقلت يا هشام كيف أنت؟

فقال له طاوس:

أما خلع نعلي بحاشية بساطك فإني أخلعها بين يدي رب العزة كل يوم خمس مرات فلا يعاتبني ولا يغضب علي.

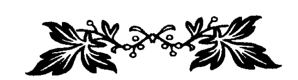
وأما قولك: لم تسلم علي بإمرة المؤمنين: فليس كل المؤمنين راضين بإمرتك فخفت أن أكون كاذبًا.

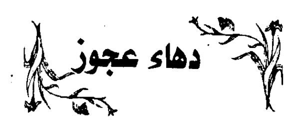
وأما قولك: لم تكنني فإن الله عز وجل سمى أنبياءه فقال: يا داود، ويا يحيى، ويا عيسى، وكنى أعداءه فقال: تبت يدا أبي لهب.

وأما قولك: جلست بإزائي: فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ يقول: إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام.

فلما سمع هشام مقالة طاوس شعر نحوه بالاحترام والرهبة وزال غضبه، وتقدم منه، وقال: عظني.

فقال له: إني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ يقول: إن في جهنم حيات وعقارب كالبغال تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته، ثم قام فخرج.





دهاء عجوز

كان لسيدة عجوزة صالحة ابن يعمل صيرفيا، وكان منهمكا على شرب الخمر ولعب القمار، وكان يتشاغل بدكانه أكثر النهار، فإذا عاد إلى منزله أعطى لأمه كيس نقوده، ثم يمضي حيث يبيت في مواضع يشرب فيها، فتتبعه لص يحاول أن يسرق الكيس، فجاء وراءه، ودخل إلى الدار، واختبأ فيها، وبعد أن سلم الابن الكيس إلى أمه وخرج، بقيت الأم وحدها في الدار فقامت إلى حجرة أمينة في المنزل وخبأت فيها الكيس، وجلست بعض الوقت، وكان اللص يراقبها، فقال في نفسه:

الساعة تقفل الحجرة وتنام فأقوم أنا، فأخلع الباب وآخذ الكيس، ولكن المرأة قامت تصلي ومدت الصلاة حتى انتصف الليل وتحير اللص وخاف أن يدركه الصبح، فقام يطوف في الدار، فوجد إزارًا جديدًا وبخورًا، فلبس الإزار، وأوقد البخور، وأقبل ينزل على الدرج، ويصيح بصوت غليظ ليفزع العجوز، وكانت جلدة، فعرفت أنه لص، فقالت بارتياع وفزع.

من هذا؟ فقال اللص:

أنا جبريل رسول رب العالمين أرسلني إلى ابنك هذا الفاسق، لأعظه وأعامله بما يمنعه من ارتكاب المعاصي، فادعت أنه قد غشي عليها من الفزع، وأقبلت تقول:

يا جبريل أرجوك أن ترفق بابني، فإنه وحيدي.

فقال اللص:

ما أرسلت لقتله، فقالت:

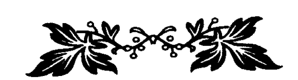
فيم أرسلت؟ قال:

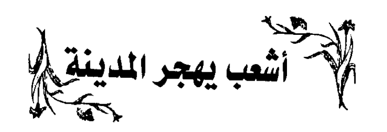
لآخذ كيسه، وأولم قلبه بذلك، فإذا تاب رددته عليه، فقالت:

يا جبريل... أنا مسرورة بما قلت. فقال: تنحي عن باب البيت، فتنحت، وفتح هو الباب، ودخل ليأخذ الكيس، وانشغل في البحث عنه، فمشت العجوز قليلا قليلا، ثم أسرعت فجذبت الباب، وجعلت الحلقة في الرزة، وقفلت بالقفل، فنظر اللص، فأدرك أنها جبسته، فأخذ يبحث عن حيلة كي يخرج، فوجد أن الحجرة ليس لها نوافذ كي يقفز منها، وأدرك أن الجدار سميك يستحيل أن ينقبه ويخرج، فقال لها:

افتحي حتى أخرج فقد اتعظ ابنك فقالت: يا جبريل أخاف أن أفتح الباب فأفقد بصري بسبب قوة نورك. فقال:

إني أطفئ نوري حتى لا يؤذي عينيك فقالت: يا جبريل، يمكنك أن تخرج من السقف أو تخرق الحائط بريشة من جناحك، ولا تكلفني فتح الباب فتعرض للخطر بصري، فأحس اللص أن المرأة ذكية فراح يداريها، ويعلن أنه أخطأ وتاب، فقالت: دع عنك هذا، لا سبيل إلى الخروج إلا بالنهار، وقامت المرأة تصلي، وهو يلح في الرجاء حتى طلعت الشمس وجاء ابنها، فعرف أمر اللص، فأحضر صاحب الشرطة، وفتح الباب وقبض على اللص.





أشعب يهجر المدينة

حدث أشعب قال:

ولي المدينة رجل من ولد لؤي بن عامر، كان من أبخل الناس، وأنكدهم، أغراه الله بي، يطلبني في ليله ونهاره فإن هربت منه هجم على منزلي بالشرط، وإن كنت في موضع بعث إلي يطلبني، ثم يطلب مني إذا صرت معه أن أحدثه وأضحكه، فلا يسمح لي أن أسكت أو أنام، ولا يطعمني، ولا يعطيني شيئا، فلقيت منه جهدًا عظيما وبلاء شديدًا.

وحضر موسم الحج فقال لي:

يا أشعب كن معي. فقلت:

بأبي أنت وأمي، أنا عليل، وليست لي نية الحج فقال:

لئن لم تخرج معي لأودعنك الحبس حتى أقدم، فخرجت معه مكرها، فلما نزلنا المنزل أظهر أنه صائم، ونام حتى تشاغلت، ثم أكل ما كان عنده من طعام، وأمر غلامه أن يطعمني رغيفين بملح، فجئت، وأنا أعتقد أنه صائم، ولم أزل أنتظر المغرب أتوقع إفطاره، فلما صليت المغرب قلت لغلامه:

ما ينتظر بالأكل؟ قال:

قد أكل منذ زمان. قلت:

أو لم يكن صائما؟ قال:

لا، قلت:

هل أظل جائعا؟ قال:

لقد أعد لك ما تأكله، فكل، وأخرج إلي الرغيفين والملح فأكلتهما،

وبت ميتا جوعا، وأصبحت فسرنا حتى نزلنا المنزل، فقال لغلامه:

ابتع لنا لحما بدرهم، فابتاعه، فقال:

أعد لي قطعا، ففعل، فأكله، ونصب القدر، فلما أغبرت قال:

اغرف لي منها قطعا، ففعل، فأكلها، ثم قال:

اطرح فيها دقة وأطعمني منها، ففعل، ثم قال:

ألق توابلها وأطعمني منها، ففعل، وأنا جالس أنظر إليه، لا يدعوني، فلما استوفى اللحم كله قال: يا غلام أطعم أشعب، ورمى إلي برغيفين، فجئت إلى القدر فلم أجد فيه إلا مرقا وعظاما، فأكلت الرغيفين وقام الرجل فأخرج له جرابا فيه فاكهة يابسة فأخذ منها حفنة فأكلها، وبقي في كفه كف لوز بقشره لم يستطع كسره، فرمى به إلي، وقال: كل هذا يا أشعب، فذهبت أكسر واحدة منها فإذا بضرس قد انكسرت منه قطعة، فسقطت بين يدي، فالتمست حجرا أكسره به، فوجدته فضربته به لوزة فقفزت مقدار رمية حجر، فجريت في طلبها، فبينما أنا كذلك إذا أقبل نفر من بني مصعب، فصحت بهم:

الغوث الغوث، العياذ بالله وبكم يا آل مصعب الحقوني أدركوني:

فركضوا إلي، فلما رأوني قالوا: ما لك يا أشعب، ويلك؟ قلت:

خذوني معكم تخلصوني من الموت، فحملوني معهم، فجعلت أرفرف بيدي كما يفعل الفرخ حين يطلب الرزق من أبويه، فقالوا:

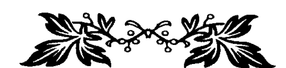
ما لك؟ ويلك؟ قلت:

ليس، هذا وقت الحديث أطعموني مما معكم فقد مت ضرا وجوعا منذ ثلاث ليال.

فأطعموني حتى تراجعت نفسي وهدأت، ثم حملوني معهم في محمل،

ثم قالوا:

أخبرنا بقصتك فحدثتهم وأريتهم ضرسي المكسورة، فجعلوا يضحكون، ويصفقون، وقالوا: من أين وقعت على هذا الرجل؟ هذا من أبخل خلق الله وأدنئهم نفسا، فحلفت بالطلاق أني لا أدخل المدينة ما دام له بها سلطان، فلم أدخلها حتى عزل.



أبو الأغر والكلب

نزل شيخ أعرابي من بني نهشل يكنى (أبا الأغر) على بيت أخت له من قريش، وذلك في شهر رمضان، فخرج الناس إلى أعمالهم، وخرجت النساء إلى المساجد ولم يبق في الدار إلا الإماء، فجاء كلب ورأى بيتا فدخله، وانصفق الباب، فسمعت الإماء الحركة فظنن لصا دخل الدار، فذهبت إحداهن إلى أبي الأغر وأخبرته، فأخذ عصا، ووقف على باب البيت، وقال:

والله إني بك عارف، فهل أنت من لصوص بني مازن، وشربت نبيذا حامضا خبيثا، حتى إذا دارت الأقداح برأسك منتك نفسك الأماني، فقلت أطرق دور بني عمرو، والرجال خلوف، والنساء يصلين في المسجد فأسرق، سوءة لك، والله ما يفعل هذا حر، بئسما منتك نفسك، فاخرج بالعفو عنك، وإلا دخلت بالعقوبة عليك.

وايم الله لتخرجن أو لأهتفن هتفة يلتقي فيها الحيان: عمرو وحنظلة، وتجيء سعد بعدد الحصى، ويشيل عليك الرجال من ههنا وههنا، ولئن فعلت لتكونن أشأم مولود في بني تميم.

فلما رأى أبو الأغر أن لا أحد يجيبه؛ تصنع اللين، فقال:

اخرج - بأبي أنت - منصورا مستورا، إني والله ما أراك إلا تعرفني، ولئن عرفتني لوثقت بقولي، واطمأننت إلي، أنا أبو الأغر النهشلي، وأنا خال القوم، وجلدة ما بين أعينهم، لا يعصون لي أمرا، وأنا خفير كفيل، أجعلك شحمة بين أذني وعاتقي، اخرج أنت في ذمتي.

وكان الكلب إذا سمع هذا الكلام أطرق، وإذا سكت وثب يريد

الخروج، فتهافت أبو الأغر ثم قال:

يا ألأم الناس أراني بك الليلة في واد وأنت في آخر أقلب البيضاء والصفراء فتصيح وتطرق، وإذا سكت عنك وثبت تريد الخروج، والله لتخرجن أو لأدخلن عليك.

فلما طال وقوفه، جاءت جارية، وقالت:

أعرابي مجنون، والله ما أرى في البيت أحدًا ودفعت الباب، فخرج الكلب مبادرًا، ووقع أبو الأغر مستلقيا، فقلن له:

قم إنه كلب، فقال:

الحمد لله الذي مسخه كلبا، وكفى العرب حربا.



الأعرابي لا يبيع الجمل

كان أبان ابن الصحابي الجليل وأحد الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان من أكثر الناس هزلا فكان يميل إلى المرح الزائد إلى حد العبث، وكان يجلس ذات يوم في بيته وعنده جماعة من أصدقائه، وكان عنده أشعب الذي عرف بطمعه وعرف أيضا بعبثه فأقبل عليهم في مجلسهم أعرابي ومعه جمل له، والأعرابي أشقر أزرق أزعر[١] غضوب يتلظى كأنه أفعى، ويبين الشر في وجهه، ما يقترب منه أحد إلا شتمه ونهره، فقال أشعب لأبان:

هذا رجل من الصنف الذي يصلح ؛ لأن نسخر منه، ونمزح معه، ادعه.

فدعاه أحد الحاضرين قائلا:

إن الأمير أبان بن عثمان يدعوك، فأتاه، فسلم عليه، فسأله أبان عن نسبه، فأخبره فقال:

حياك الله يا خالي، أنت حبيب ازداد حبا.

وجلس الأعرابي، فاتجه إليه أبان قائلا:

إني أطلب وأبحث عن جمل مثل جملك هذا منذ زمان فلم أجده، وأشتهي أن يكون في مثل صفاته بهذه القامة، وهذا اللون، والصدر، والورك، والأخفاف، والحمد لله لأني ظفرت بحاجتي عند من أحبه، أتبيعه؟

---

(١) الأزعر: السيئ الخلق.



فقال:

نعم أيها الأمير فقال أبان:

فإني أعطيك مائة دينار ثمنا له، وكان الجمل يساوي عشرة دنانير، فظهر الطمع في وجه الأعرابي وبان السرور عليه، فأقبل أبان على أشعب وقال له:

ويلك يا أشعب، إن خالي من أهلك وأقاربك [١] فأوسع له مما عندك[٢] قال أشعب:

نعم، بأبي أنت وزيادة.

فقال أبان للأعرابي:

يا خالي، إنما زدتك في الثمن ؛ لأن النقد معنا قليل فالجمل يساوي ستين دينارا، ولأن النقد قليل أعطيك به أشياء تساوي مائة، فزاد طمع الأعرابي، وقال:

قد قبلت ذلك أيها الأمير.

وأقبل أبان على أشعب فأسر إليه بكلام فأخرج أشعب شيئا مغطى فقال له:

اخرج ما جئت به، فأخرج عمامة خز خلق تساوي أربعة دراهم فقال:

قومها يا أشعب. فقال:

عمامة الأمير، تعرف به، ويشهد فيها الأعياد والجمع ويلقى فيها الخلفاء تساوي خمسين دينارا. فقال أبان:

ضعها بين يديه ثم قال لأحد الحاضرين:

---

(١) يعني من أهل الطمع مثلك.

(٢) فأمزح معه في هذا المجال.

أثبت قيمتها، فكتب ذلك، ووضعت العمامة بين يدي الأعرابي، فكاد يدخل بعضه في بعض غيظا، ولم يقدر على الكلام.

ثم قال أبان:

هات قلنسوتي، فأخرج أشعب قلنسوة طويلة خلقة، قد علاها الوسخ والدهن، وتخرقت، وأصبحت تساوي نصف درهم، فقال أبان:

قوّم[1]. فقال أشعب:

قلنسوة الأمير، تعلو هامته، ويصلي فيها الصلوات الخمس ويجلس للحكم تساوي ثلاثين دينارا، قال أبان:

أثبت فأثبت الرجل الذي يدون ذلك، ووضعت القلنسوة بين يدي الأعرابي، فتربد وجهه، وجحظت عيناه، وهم بالوثوب، ثم تماسك، وهو يتململ.

ثم قال أبان لأشعب:

هات ما عندك، فأخرج خفين قد تخرقا، وتقشر وتفتقا فقال أبان:

قوم فقال أشعب:

خفا الأمير، يطأ بهما الروضة، ويعلو بهما منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمنهما أربعون دينارا.

فقال أبان:

ضعهما بين يديه، فوضعهما، ثم قال للأعرابي:

اضمم إليك متاعك، وقال لبعض الأعوان:

اذهب فخذ الجمل. وقال للآخر:

امض مع الأعرابي فاقبض منه ما بقي لنا عليه من ثمن المتاع، وهو عشرون دينارا، فوثب الأعرابي، فأخذ القماش فضرب به وجوه القوم ثم

(١) أي: ثمّن.

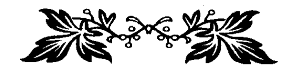
توجه بالحديث إلى أبان قائلا:

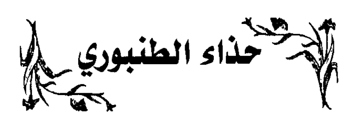
أتدري – أصلحك الله – من أي شيء أموت؟

قال أبان:

لا. قال الأعرابي:

لأني لم أدرك أباك عثمان بن عفان فأشترك في قتله لأنه ولد مثلك. ثم نهض مثل المجنون حتى أخذ برأس بعيره وانصرف.





حذاء الطنبوري

عاش أبو القاسم الطنبوري في بغداد أيام العباسيين، وقد عرف بحضور البديهة، وخفة الروح، وكان صاحب نوادر وحكايات، وكما اشتهر بين الناس بحضور بديهته، وخفة روحه، وكثرة نوادره، اشتهر أيضا بشيء آخر، هو مداسه أي حذائه، ذلك أنه كان له حذاء عاش معه زمنا كلما انقطع منه موضع جعل عليه رقعة إلى أن صار في غاية الثقل، وصار يضرب به المثل فيقال أثقل من مداس أبي القاسم الطنبوري.

وكان أبو القاسم صاحب تجارة، وتصادف أن كان في سوق الزجاج في بغداد، فرأى تاجرا من حلب ومعه زجاج كثير، قد كسد سوقه فانخفض سعره فاشتراه، ثم دخل سوق العطارين فوجد تاجرا آخر معه عطر كثير أتى به ليبيعه لكن كسد سوقه وانخفض سعره، فاشتراه أيضا، ووضعه في الزجاج، ثم جعله في بيته، وانتظر حتى تأتيه الفرصة المناسبة لبيعه.

وقد كان أصدقاؤه يعيبون له حذاءه، ويحرضونه على شراء حذاء آخر جديد، ويتعللون لذلك بأسباب كثيرة، فتارة يقولون: إنه لا يليق برجل له مكانته بين الناس ويسير بينهم لابسا هذا الحذاء وهم يعرفونه، وتارة يقولون له: إنه يلفت إليه نظر الناس الذين لا يعرفونه، وتارة يقولون له: إنه كالقيد يثقل حركته ويبطئ مشيته، إلى أن اقتنع بأنه يجب أن يلبس حذاء غيره.

وذات يوم دخل الحمام في أحد أحياء بغداد، ولما خرج من الحمام بعد أن اغتسل ولبس ثيابه، وجد إلى جانب حذائه حذاءً جديدًا فلبسه ومضى

إلى بيته، وكان القاضي قد دخل الحمام يغتسل، ففقد حذاءه فقيل له إن الذي لبس حذاءك قد ترك حذاءه، وفي نهاية اليوم لم يجدوا إلا حذاء أبي القاسم، فانقضت الشرطة على بيته فوجدوا حذاء القاضي عنده، وحوكم الرجل فحبس وأخذ منه الحذاء.

ولما خرج أبو القاسم من محبسه أخذ حذاءه وألقى به في نهر دجلة ليتخلص منه بعد أن سبب له المتاعب، ولثقل الحذاء سرعان ما غاص في الماء، فرمى بعض الصيادين شبكته، فطلع بها المداس فعرفه وقال هذا مداس أبي القاسم، ربما سقط منه في النهر، وحمله إلى بيته فلم يجد أبا القاسم فرماه من النافذة إلى بيته، فسقط على الرف الذي وضع عليه الزجاج وبه ماء الورد، فانكسر الزجاج وسال المعطر.

فلما رأى أبو القاسم خسارته الكبيرة لطم على وجهه وأخذ يصيح: وا مصيبتاه وا فقراه، أفقرني هذا الحذاء اللعين، ثم قام بالليل وأخذ يحفر له حفرة في الحائط ليضعه فيها، فقام الجيران وشكوه إلى الوالي واتهموه بأنه ينقب ليسرق، فأرسل إليه الوالي من اعتقله، وقال تنقب الحائط لتسرق جيرانك، وحكم عليه بالحبس.

فلما خرج من السجن فكر في مكان يضع فيه الحذاء، ولا يعود إليه، فألقاه في مرحاض المدينة، فسدر مجراه وفاض، وغمرت المياه الشوارع، وتصاعدت رائحة كريهة وحضر العمال فوجدوا حذاء أبي القاسم الذي أرهق الناس وضايقهم، فحملوه إلى الوالي فحكم عليه بغرامة جزاء ما فعل.

وحمل الرجل الحذاء ووضعه فوق منزله إلى أنه يفكر في طريقه للخلاص منه فرآه كلب فظنه طعامًا، فحمله وعبر به إلى سطح آخر فوقع على امرأة حامل، فسقط عليها فأسقط حملها.

وتجمع أهلها وحضر زوجها فوجدوه حذاء أبي القاسم فرفعوا الأمر إلى الحاكم، فحكم عليه بالدية، فنظر الرجل إلى ما بقي معه من مال فوجده على قدر الدية التي حكم بها الوالي عليه، فسدد الدية وافتقر.

وجلس الرجل يفكر في ما آل إليه حاله، وفي الغد الذي ينتظره، لو ظل الحذاء معه، فحمله وخرج به إلى القاضي وقص له حكايته، وروى له النكبات التي حلت به بسبب هذا اللعين، وقال: أريد من القاضي حكما بأن هذا الحذاء ليس مني، ولست منه، وأني بريء منه، ومهما ما يفعله الحذاء لا يحاسب به أبو القاسم ؛ لأنه افتقر بسببه، وبعد أن كان يضرب المثل بثقله أصبح يضرب المثل بشؤمه فكان يقال أشأم من حذاء أبي القاسم.



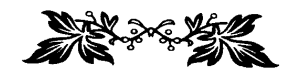


استقبال الإمبراطور بنعليه

أرسل إمبراطور الروم عام ٢٢٥هـ إلى أمير الأندلس عبد الرحمن الثاني سفيرًا من قبله اسمه قراطيلوس طلبًا لمودته وصداقته، وردًا على هذه السفارة أرسل الأمير مع السفير الرومي رجلين من أعيان دولته هما يحيى بن الحكم البكري نسبة إلى قبيلة بكر واشتهر باسم الغزال، ويحيى بن حبيب، ومعهما هدايا نفيسة، ولما بلغا القسطنطينية لقيا حفاوة كبيرة، وطلب من السفير مراعاة مراسم الدخول على الإمبراطور، ومنها الركوع أمامه، فأبى الغزال ذلك بقوة، وأصر على عدم تغير شيء من السنن التي ألفها، فاحتال الإمبراطور ليضطرهما إلى الركوع بإدخالهما من باب منخفض، ولكن الغزال حين بلغ الباب فطن إلى الحيلة فزحف جالسا على مؤخرته حتى إذا جاوز الباب استوى قائما، فإذ الإمبراطور على عرشه وحوله أعيان حاشيته وهم جميعا في تمام بهائهم وأبهتهم، فتقدم الغزال بجرأة ووقار إلى العرش، فحيا وبلغ ما أرسل به، فلم يجد الإمبراطور بدا من الابتسام إعجابا بوقاره وجرأته وسرعة بديهته فخاطب حاشيته قائلا:

حقا كما قال الحكماء (إنه من شخصية الرسول... يعرف سيده).

هذا حكيم من حكماء القوم وداهية من دهاتهم، أردنا أن نذله فقابل وجوهنا بنعليه.



ذبحوا ابن أشعب

قال أشعب ذات يوم لزوجته:

أي ابنة وردان إن أحب أن ترضعي جدينا بلبنك حتى ينمو ويصبح سمينا كبيرا فنحصل مالا وفيرا حين نقوم ببيعه ذلك أن لبنك لبن مبارك وسيكون له أثر طيب في نمو الجدي وضخامته واستجابت الزوجة لرجاء زوجها أشعب.

وبعد مدة حمل أشعب الجدي وذهب به إلى إسماعيل بن جعفر بن محمد من آل الحسين رضي الله عنه فقال:

بالله إنه لابني، قد رضع من لبن زوجتي، وقد حبوتك به، ولم أر أحدًا يستحقه سواك، فأخذ إسماعيل الجدي من أشعب، ثم أمر بالجدي فذبح، وأعد ليكون طعاما للغداء، فأقبل أشعب نحو إسماعيل قائلا:

المكافأة، فقال إسماعيل: ما عندي اليوم شيئا، ونحن من تعرف ولن تفوتك المكافأة في الأيام المقبلة.

وحاول أشعب أن يستخلص منه شيئا فلم يتمكن فلما يئس منه قام من عنده، فدخل على أبيه جعفر بن محمد، ثم اندفع يشهق حتى التقت أضلاعه ثم قال:

أخلني[1] قال جعفر:

ما معنا أحد يسمع ولا عين عليك. قال أشعب وثب ابنك إسماعيل على ابني فذبحه، وأنا أنظر إليه، فارتاع جعفر وصاح:

---

(١) أريد أن أختلي بك فلا يكون معنا أحد.

ويلك؟! وفيم؟ وماذا تريد، قال أشعب: أما ما أريد فوالله مالي في إسماعيل حيلة، ولا أشكوه لأحد بعدك، فشكره جعفر وطيب خاطره ودعا له بخير، وأدخله منزله وأخرج له مائتي دينار[1]، وقال له:

خذ هذه ولك عندنا ما تحب، وخرج جعفر متجها نحو ابنه، وهو من الغيظ لا يكاد يبصر ما يطأ عليه فرآه مترسلا في مجلسه، فلما رأى إسماعيل وجه أبيه وما به من غيظ بادر إليه قائما وعلى وجهه أمارات الدهشة والتساؤل فقال الرجل لابنه:

أو فعلتها يا إسماعيل بأشعب؟ قتلت ولده، فضحك إسماعيل، وقال:

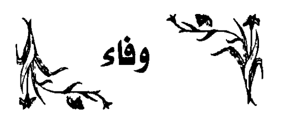
جاءني بجدي من صفته كذا وكذا، وخبره الخبر، فأخبره أبوه ما كان منه وصار إليه فتضاحك الرجلان واتجه جعفر إلى أشعب قائلا:

رعبتني رعبك الله. فقال أشعب:

والله روعة ابنك إياي في الجدي أكبر من روعتك أنت في المائتي دينار.



(١) وكان الجدي يساوي ثلاثة دنانير.



كان مروان بن الحكم قد أحضر هدبة بن الخشرم، ليقتله، وتجمع خلق كثيرون، وفوجئ الجمع بزوجة هدبة وقد أقبلت تصيح:

أتقتلونه؟ وأرهف الجميع أسماعهم للصوت الحزين الصادر من القلب الملتاع واستمرت الزوجة تقول:

تقتل رجلا وحيدا يا مروان؟ أجابها أسفك دمه وآخذك زوجة من بعده، قالت:

إن لزوجي هدبة وديعة عندي، فأمهله حتى آتيك بها، فقال لها:

أسرعي فإن الناس قد كثروا.

واخترقت الزوجة الجموع وقد امتلأ قلبها بالفجيعة وتعيش أحزان فراق زوجها ومأساته ومضت إلى السوق، وأتت إلى قصاب فقالت له:

أعطني شفرتك، فأخذتها وقربت من حائط ورفعت طرحتها عن وجهها، ثم شوهت وجهها، وجدعت أنفها ثم أقبلت حتى دخلت على الناس، ورفعت الطرحة عن الدم، والوجه المشوه ووجهت الكلام لزوجها:

أتراني يا هدبة متزوجة بعد ما ترى، فقال هدبة الآن طابت نفسي بالموت، فجزاك الله من حليلة وفية خيرا.



يكذب ليبقي على نفسه أو يكذب للضرورة

زار أعرابي حاتم الطائي، ولكن حاتما لم يطعمه، فبات الرجل جائعا، فلما كان في السحر ركب راحلته، وانصرف وافتقده حاتم فلم يجده، فخرج متنكرا يبحث عنه حتى لقيه، فسأله:

عند من قضيت البارحة؟ قال:

عند حاتم. قال:

فكيف كان مبيتك عنده، قال الأعرابي:

خير مبيت، نحر لي ناقة، فأطعمني، وعلف راحلتي، وسرت من عنده بخير حال.

فقال حاتم:

أنا حاتم، وأنا لن أتركك حتى تعود معي حتى ترى ما وصفت، لكن ما حملك على الكذب؟

فقال الأعرابي:

إن الناس كلهم يثنون عليك بالجود، ولو ذكرت شرا كذبني الناس، فرجعت مضطرا إلى قولهم إبقاء على نفسي... لا عليك.





الفلاح الحكيم

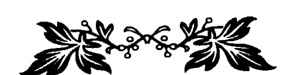
وقف أحد الملوك على فلاح يغرس نخلا وقد طعن في السن، فقال الملك متعجبا:

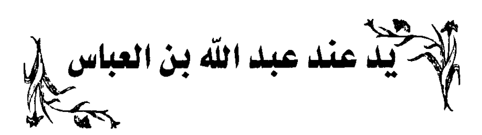
أيها الشيخ أتؤمل أن تأكل من ثمر هذا النخل وهو لا يثمر إلا بعد سنين طويلة، وأنت قد فني عمرك فقال:

أيها الملك... قد غرسوا وأكلنا، وغرسنا فيأكلون فتعجب الملك من كلام الفلاح وأعطاه ألف دينار فأخذها، وقال:

أيها الملك... ما أعجل ثمار هذا النخل، فاستحسن الملك ذلك، وأعطاه ألف دينار أخرى، فأخذها، وقال:

أيها الملك... وأعجب من كل شيء أن النخل أثمر السنة مرتين فاستحسن الملك ذلك وأعطاه ألفا أخرى، وهنا صمم رجال الحاشية على أن يرحلوا ومعهم الملك ؛ لأنه لو بقي يستمع إلى ذلك الرجل الحكيم لأعطاه كل ما معه تقديرًا لحكمته وفصاحته.





يد عند عبد الله بن العباس

أتى رجل عبد الله بن العباس، وهو بفناء داره، فقال:

يا ابن العباس إن لي عندك يدًا، وقد احتجت إليها، فتأمله مليا فلم يعرفه، فسأله:

وما يدك عندنا؟ قال الرجل:

رأيتك واقفا بزمزم وغلامك يمتح لك من مائها والشمس قد صهرتك، فظللتك بطرف كسائي حتى شربت قال:

نعم، أذكر ذلك، وإنه يتردد في خاطري وفكري ثم قال لغلامه:

ما عندك؟ قال:

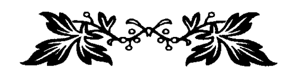
مائتا دينار، وعشرة آلاف درهم، قال:

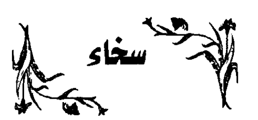
ادفعها إليه، وما أراها تفي بحق يده عندنا. قال له الرجل:

والله لو لم يكن لإسماعيل ولد غيرك لكان فيه مكافأة فكيف وقد ولد سيد الأولين والآخرين، ثم شفع بك، وبأبيك:

وأنت ربيع لليتامى وعصمة ... إذا المحل من جو السماء تطلعا

أبوك أبو الفضل الذي كان رحمة ... وغيثا ونورا للخلائق أجمعا





خرج عبد الله بن جعفر إلى ضيعة له، فنزل على أرض من نخيل لقوم، فيها غلام أسود، يقوم عليها، ويرعاها بأجر لا يتجاوز خبز يومه، وعندما أتيي بأرغفته الثلاثة، وجلس ليأكل دخل كلب، فدنا منه، فرمى إليه برغيف فأكله، ثم رمى إليه بالثاني، والثالث فأكلهما، وعبد الله ينظر إلى الغلام متعجبا فقال له:

يا غلام.... كم قوتك كل يوم؟ قال:

ما رأيت. قال:

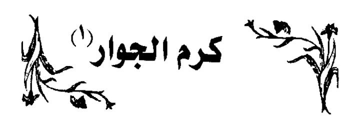
فلم آثرت الكلب؟ قال:

لأن أرضنا تخلو من الكلاب، وأظنه قد جاء من مسافة بعيدة جائعًا فكرهت رده، قال عبد الله:

فما كنت صانعا اليوم؟ قال الغلام:

أطوي يومي ولا أطعم شيئا، فقال عبد الله بن جعفر: والله إن هذا لأسخى مني واشترى النخل والعبد، وأعتقه ووهب ذلك له.





كرم الجوار[١]

لما آلت الخلافة إلى بني العباس اختفت رجال من بني أمية ومنهم إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك، وكان إبراهيم رجلا عالما عاملا أديبا كاملا، وهو في سن الشيبة فأخذوا له أمانًا من السفاح، خليفة بني العباس فقال له السفاح يوما:

حدثني عما مر بك في أثناء اختفائك؟

قال إبراهيم بن سليمان:

كنت يا أمير المؤمنين متخفيا بالحيرة في منزل يطل على الصحراء، فبينما أنا على ظهر البيت إذ نظرت إلى أعلام سود [٢] قد خرجت من الكوفة تريد الحيرة، فتخيلت أنها تريدني، فخرجت من الدار متنكرا حتى أتيت الكوفة، ولا أعرف أحدًا فيها أختفي عنده، فبقيت في حيرة من أمري، فإذا أنا بباب كبير، رحبته واسعة، فدخلت فيها، فإذا رجل وسيم حسن الهيئة على فرس، فدخل البيت ومعه جماعة من غلمانه وأتباعه، فقال له:

من أنت؟ وما حاجتك؟ فقلت: خائف على دمه وقد استجار بمنزلك، فأدخلني الرجل منزله، ثم أنزلني في حجرة تلي حرمه، وكنت عنده في ذلك على أحسن حال من مطعم ومشرب وملبس، لا يسألني عن شيء من حالي، إلا أنه يركب في كل يوم ويخرج ثم يعود، فقلت له يوما:

أراك تدمن الركوب ففيم ذلك؟ فقال:

إن إبراهيم بن سليمان قتل أبي تعذيبا، وقد بلغني أنه مختف فأنا أطلبه

---

(١) عن ثمرات الأوراق لابن حجة الحموي.

(٢) كانت أعلام العباسيين سوداء.

لآخذ بثأري منه، فكثر والله تعجبي، وقلت:

القدر ساق حتفي في منزل من طلب دمي ، وكرهت الحياة، فسألت الرجل عن اسمه واسم أبيه فأخبرني فعلمت أن الخبر صحيح، وأنا الذي قتلت أباه، فقلت له: يا هذا قد وجب علي حقك، ومن حقك أن أدلك على خصمك، وأقرب إليك الخطوة، قال:

وما ذاك؟ قلت:

أنا إبراهيم بن سليمان، قاتل أبيك، فخذ بثأرك فقال:

إني أحسبك رجلا قد أثر فيه الاختفاء فأحببت الموت، فقلت:

لا، والله، ولكن أقول لك الحق يوم كذا بسبب كذا وكذا فلما علم صدقي تغير لونه، واحمرت عيناه، وأطرق مليًا، ثم قال:

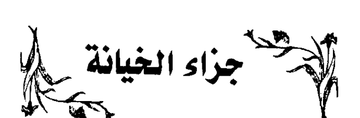
أما أنت فستلقى أبي عند حكم عدل فيأخذ بثأره.

وأما أنا فغير مخفر (ناقص) ذمتي، فاخرج عني فلست آمن من نفسي، وأعطاني ألف دينار، فلم آخذها منه وانصرفت.

فهذا أكرم رجل رأيته بعد أمير المؤمنين.







جزاء الخيانة

حكم الحكم بن هشام الدولة العربية في بلاد الأندلس بعد أبيه هشام بن عبد الرحمن بن معاوية، ولكنه لم يكن يتمتع بالقدرات التي تجعله حاكما قديرا كأبيه هشام أو كجده عبد الرحمن بن معاوية الذي عرف بعبد الرحمن الداخل، عاهل الأندلس العظيم والذي لقب بصقر قريش، وهو مؤسس الدولة الأموية في بلاد الأندلس.

لقد ترك هشام مملكة عظيمة أسهم في تقويتها وتدعيمها بعد أن أسسها والده العظيم، لكن الحكم انصرف عن متابعة مملكته إلى اللهو والعبث، ولم يعبأ بمشاعر الناس، وصار يبدد وقته بين ندمائه في الليل، وفي الصيد بالنهار، مستهينا بالناس، منصرفا عن الصلاة، فكان الناس يطوفون بقصره ويصيحون الصيد يا مخمور.

وكانوا ينتظرونه في الطريق أثناء خروجه للصيد أو عودته، ويصفقون لكلامه وتصرفاته استهزاء واحتقارا، وانتهى الأمر إلى قيام الناس بالثورة، واشترك في الثورة الفقهاء، وعلى رأسهم الفقيه الكبير طالوت بن عبد الجبار، لكن بطشت بالناس القوة الغشوم ونكلت بالثائرين وخربت موطن الثورة في جنوب قرطبة التي كانت تسمى شقنده وشرد أهلها وقتل زعماءهم، واستخفى العلماء، حيث تخير كل عالم صديقا مكث عنده بعيدًا عن أعين رجال الحكم.

ولقد تخير طالوت رجلا من اليهود وثق به، وظل عنده عامًا كاملاً، ثم فكر في أن يتوصل إلى الحصول على عفو الحكم، ووجد أن هذا سهل عن طريق صديقه أبي البسام، وزير الحكم وسميره القريب منه فذهب إليه

متخفيا وطلب منه الأمان، ورجاه أن يحقق له رغبته في الحصول على عفو الأمير، فطمأنه أبو البسام في الظاهر لكنه عزم شرا في باطنه.

وذهب أبو البسام إلى الحكم وقال له: ما رأي الأمير حرسه الله في كيس سمين، فقال الأمير: وأي كيس قال:

طالوت بن عبد الجبار، عدو الله إنه عندي لجأ إلي فرأيت أن أتقدم برأسه إلى الأمير أبقاه الله، فقال الحكم:

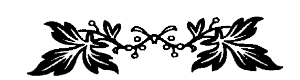
ائتني به.

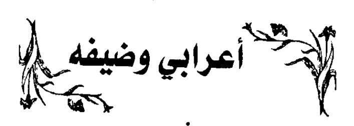
فلما جاء عرف حاله، وتقدم طالوت معتذرا، فمال الحكم إلى قبول عذره ثم سأله:

أين استترت هذا العام، فقال:

قضيته عند رجل يهودي ثم قصدت هذا الوزير فغدر بي، فعفا عنه الحكم وأعاده إلى داره آمنا، ثم التفت إلى الوزير وقال: يهودي يحفظ هذا الرجل، ويخاطر بنفسه ليصون عهده، وأنت يأتمنك الرجل على نفسه ويسألك أن تأخذ له أمانا منا فتخونه وتسعى في هلاكه والتقرب إلينا بدمه، انصرف عني مخذولا معزولا، وعلي عهد الله ألا تخدمني، ولا تدخل علي أبدًا. وانصرف الرجل ليقضي أيامه في ذلٍّ وفاقة وليقول للناس:

استجيبت فيَّ دعوة الفقيه طالوت.





كان أعرابي يمشي في بادية، وكان جائعًا، فرأى أعرابيا آخر ومعه طعام أخذ يأكل منه، فتقدم منه وهو يأمل أن يدعوه للأكل، لكن الأعرابي سأله:

من أين أتيت يا ابن العم؟ فقال:

من الثنية. فسأله:

هل أتيت بخبر؟ قال:

سل عما بدا لك، سأله:

كيف علمك بحينا؟ أجاب:

أحسن العلم. سأله:

هل لك علم بكلبي إيفاع؟ أجاب:

يحرس الحي، ولا يستطيع أحد أن يقترب منه لقوته سأله:

فكيف علمك بزوجتي أم عثمان؟ أجاب:

في أحسن حال ومن مثل أم عثمان؟ سأله:

وكيف ابني عثمان؟ أجاب:

إنه شبل الأسد ويلعب مع الصبيان، سأله:

وكيف حال جملنا السقاء؟ أجاب:

إن سنمه ليخرج من الغبيط، سأله:

وكيف دارنا الآن؟ أجاب:

إنها حصيبة الجناب عامرة الفناء، كأنها دار الملك النعمان.

فقام الأعرابي إلى الطعام يأكل دون أن يدعو ضيفه، وحينئذ مر كلب

فقال الأعرابي صاحب الطعام:

يا أعرابي أين هذا الكلب من إيفاع؟

فرد عليه الأعرابي الجائع:

يا أسفي عليه، لقد مات فكثر السراق في الحي بعد موته. فسأله:

وما سبب موته؟ قال:

أكل من لحم جملك السقاء فمات فسأله:

إنا لله، وهل مات الجمل؟ وكيف مات؟

قال:

عثر بقبر أم عثمان فانكسرت رجله، فقال: ويل أمك أماتت أم عثمان؟ قال:

إي والله لقد سقطت عليها الدار، فسأله:

وهل هدمت الدار؟ قال:

نعم، ونهبوا جميع ما فيها حتى الطوب والخشب، فرمى الأعرابي بطعامه، وأقبل ينتف لحيته، ويقول:

وأين أذهب؟

فأسرع الأعرابي القادم الجائع إلى الطعام وأخذ يأكله وهو يقول:

لا أرغم الله إلا أنف اللئام.



الفهرس